حتمية الحل الإسلامى

إن فى هذا الكون شيئين: شىء يفعل لك وشىء ينفعل بك، فالشىء الذى يفعل لك يستوى فيه الناس جميعا كافر ومسلم، فالشمس مثلاً تفعل لك فهى تشرق كل صباح، ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما أو شاكرا لله وجاحدا لنعمته، كلهم سواء، فعطاء الشمس للجميع بلا تفرقة والهواء مثلاً تتنفسه كل الكائنات الحية بدون أى تفرقة بين جاحد لنعمة الله وشاكر لها، والماء يشرب منه كل كائن حى، وبصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله وكفره، هذه الأشياء تفعل كثيرا الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك، والهواء يعطينا أسباب الاستمرار فى الحياة، والماء يعطينا الحياة نفسها. ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

كل هذه الأشياء تفعل لك، وهى تفعل بلا تمييز، لأنها عطاء من رب العالمين فهى عطاء ربوبية، ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يمنح عطاء ربوبيته للجميع؛ لأنه رب الجميع رب العالمين، وما دام هو الرب الذى استدعاك للوجود وجاء بك إلى هذه الحياة، فهو يكفل لك بنعمه أسباب الاستمرار فى الحياة.

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تنفعل بك، وارتقاء الإنسان فى الكون يتم فيما ينفعل به لا فيما ينفعل له وما ينفعل بك إن فعلت ينفعل فإذا حرثت الأرض حرثا جيدا، ثم وضعت البذرة ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمرا جيدا، ومحصولا وفيرا، وإن بحثت فى باطن الأرض وجدت البترول والمعادن تعطيها لك الأرض لأنك فعلت، فهى تنفعل بك، وفى هذا لابد أن نتنبه إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٦].

ذلك أن هذه الآية قد نزلت منذ أربعة عشر قرنا ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعرف ما تحت الثرى سوى آبار المياة التى يحفرها الناس، فأخذت على هذا المعنى.. ثم تقدم العلم ليكشف لنا أن فى باطن الأرض كنوزا تزيد على ما فوق سطح الأرض فتنبهنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾.

وعرفنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنبأنا فى قرآنه الكريم منذ أربعة عشر قرنا أن هناك كنوزا فى باطن الأرض، ولو تنبهنا إلى هذه الآية لبحثنا عن هذه الكنوز، ولكن وقت أن نزل القرآن لم يكن قد جاء موعد ميلاد ما تحت الثرى ليخدم الإنسان فى حياته، ويؤدى دوره للحضارة الإنسانية، ومر الزمن ووجدنا تحت الثرى الكثير والكثير، وربما بعد سنوات سنكتشف أكثر وأكثر.

وهكذا نجد أن الارتقاء فى الحياة وفى الكون يأتى من الأشياء التى تنفعل بك، والذين لا يقومون بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان فى الأرض لا يتقدمون ويظلون متأخرين وهذا ما يُحدث الخلاف فى التقدم والارتقاء بين الأمم والناس، فتخلف أى شعب إنما يتم لأنه لا يقوم بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل به فى الكون، وتقدم أى دولة إنما يتم بالتعامل مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان، والأشياء التى تنفعل بك يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على نتيجة، فهذه الأشياء أيضاً لا تفرق بين مسلم وكافر، ومؤمن وملحد، فالكافر الذى يحسن حرث أرضه وخدمتها وريها يحصل على أجود أنواع البذور، ويجنى محصولا وفيرا، والمؤمن الذى يهمل أرضه ولا يزرعها لا تعطيه شيئا، لأنه لا يطبق قوانين الله فى كونه، والملحد أو الكافر الذى يستخدم أحدث الأساليب العلمية يجنى ثمار التقدم فهو يبحث عن المعادن فى باطن الأرض بأحدث الأساليب التى وصل إليها العلم فتظهر له هذه المعادن لأنها تنفعل به والمؤمن الذى يترك المعدن فى باطن الأرض ولا يبحث عنه، لا يخرج المعدن له.

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [الكهف: ٧].

ليجتذب الإنسان إلى العمل، والزينة هى ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية، فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل، وزينة الأرض هى أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل، فالإنسان حين يرى حديقة جميلة، أو عمارة فخمة يتمنى أن يزرع أو يبنى مثلها فتكون هذه الزينة حافزا للإنسان على أن يعمل، فكأن الله جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبنا إليها.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

معنى استعمركم، أى: طلب منكم عمارتها وذلك لا يأتى إلا بأمرين: أن تبقى الصالح على صلاحه لا تفسده، وأن تُصلح الفاسد وتزيد إصلاحه، وزينة الله على الأرض من أثرين: آثار خلق الله وهى الطبيعة التى وهبها الله لنا بدون أن يكون لنا جهد فيها، وآثار ما فعله الإنسان بما عمله الله له ليزين به الأرض.

هنا نأتى إلى حتمية الحل الإسلامى وهذا يظهر فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف].

ومعنى ذلك أن الله أعطى لذى القرنين أسباب القوة والحكم فى الأرض، ولكنه لم يقتصر على ما أوتى، لم يقف على ما فعل له بل اتبع سببا، أى أخذ بالأسباب فيما ينفعل به، ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليرينا الأسلوب الصحيح فى مواجهة الحياة؛ ذلك أن الإنسان يجب ألا يكتفى فيما ينفعل له ولا يفعل شيئاً بل يجب أن يأخذ هذا العطاء ويعمل

من أجل أن يضيف إليه، وأن يتفاعل مع العناصر التى خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان فى الأرض، وذلك مصداقا للحديث الشريف: «ولا خير فيمن لا يألف»[1].

والإضافة بمعناها العام، أنك أنت إن عملت للكون، يكن فى خدمتك ليعطيك الخير الكثير، فلابد أن تعطى عطاء للكون، وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة ولا متطورة، ويتوقف تطور البشرية ونموها، أى إن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يتفاعل مع بيئته ومع الكون، وينهانا عن أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئاً، بل لابد للإنسان أن يعرف ويدرس كيف يحرث هذه الأرض، وما هى النباتات الصالحة لها ليحصل على أحسن النتائج.

ومن هنا نصل إلى أن العالم لكى يتقدم ويعيش فى سلام وأمان، لابد أن يتبع القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون، وهذه القوانين متكاملة بمعنى أنك لا تستطيع أن تأخذ من هذه القوانين ما يعجبك وتترك منها ما لا يعجبك، فأنت فى هذه الحياة لابد أن تتعامل مع أسباب الأرض التى تنفعل بك؛ لأن فيها الرقى فى الحياة وهذه توفر لك التقدم، وتوفر لك خيرات الأرض وتوفر لك الاكتشافات العلمية التى تعطيك الرفاهية، وأن تتعامل مع منهج الله فى الأرض، وهذا يوفر لك الحياة الآمنة المطمئنة، ويوفر لك الأمن والأمان ويعالج داءات المجتمع التى هى آفة البشرية كلها فلا تحسب أن الغنى والمال وحده يستطيع أن يعطيك الاتزان فى الحياة، وإذا كنت فى شك من ذلك، فابحث عن الشواهد ستجد أن أعلى نسبة للانتحار والجنون موجودة فى الدول المتقدمة ماديا، تلك التى تحسب أنت أن شعوبها أكثر الشعوب سعادة فى الأرض، فالسويد والولايات المتحدة مثلا فيهما أعلى نسبة من الدخل للفرد، وفيهما أيضا أعلى نسبة من الجنون والانتحار، ذلك لأن الحياة هناك فقدت اتزانها؛ أخذت عنصر التفاعل مع مواد الأرض فتقدمت وتركت عنصر الميزان الذى وضعه الله لتأمين الحياة فى الأرض، فاختلت الحياة فيها ولم تعد هى القادرة على تكوين المجتمع الآمن المطمئن الذى وضع الله قوانينه للحياة الدنيا.

ثم بعد ذلك بعدت هذه الدول عن منهج العبادة الذى هو الأساس الذى يعطى للنفس البشرية مقوماتها الروحية فالإنسان إذا آمن بالآخرة وعمل لها، ملأت نفسه السكينة، وأحس أن هناك حسابا، فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، فلا يقدم على مال

---

(١) رواه الحاكم [٥٩/٥٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وأحمد فى المسند [٢/ ٤٠٠] وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والطبرانى فى المعجم الكبير [٦/ ١٣١/ ٥٧٤٤] عن سهل بن سعد الساعدى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٨/ ٨٧]: رواه أحمد والطبرانى وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله ثقات. وقال أيضا [١٠/ ٢٧٣]: وإسناده جيد.

حرام ولا يخون الأمانة، ويعمل فى سبيل الرزق وهو يعلم أن رزقه سيأتيه والعمل الذى يقدمه الإنسان فى سبيل رزقه هو نوع من العبادة، لأننا نطيع قوانين الله فى الأرض، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجد رجلاً معتكفاً فى المسجد يصلى ليل نهار سأل من يكفله فقيل: يا رسول الله يكفله إخوته فقال صلى الله عليه وسلم: «كلهم أعبد منه»[1]. ورسول الله يقول: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[2].

ويقول: «من استحل الأجر حاسبه الله على العمل».

وهكذا نرى أن العمل نوع من العبادة أمر الله به عباده ليرتقوا فى الأرض، وأنه طلب أن يأخذوا بالأسباب حتى يعطيهم العطاء فى الدنيا، والعطاء فى الآخرة.

وبهذا نصل إلى ختام الفصل الأول، فنجد أن الله سبحانه وتعالى قد رسم الحياة الطيبة الآمنة لعباده، وحددها لهم، وأن هؤلاء العباد بدلا من أن يأخذوا هذه الأسس ويطبقوها تطبيقا عمليا وسلوكيا، ابتعدوا عنها إلى قوانين البشر التى أساسها عدم العدل وهوى النفس فعم الشقاء فى الكون ومهما طال الزمن فإن البشر سيعودون إلى قوانين الله ولكنهم سيعودون إليها مضطرين بعد أن تطحنهم المشكلات والآلام سيعودون إليها لأنها الطريق الوحيد لتخليص الإنسانية من الشقاء الذى صنعه البشر لأنفسهم، وأن الله سبحانه وتعالى برحمته قد شاء أن يجنب عباده هذا الشقاء فأنزل عليهم من السماء كتابا يهديهم إلى الطريق السوى ولكنهم بغرورهم البشرى أعرضوا عنه، واختاروا الطريق الذى وسوس لهم به الشيطان.

على أن الله تعالى قبل أن ينزل آدم إلى الأرض ليباشر مهمته عليها، قد أدخله التجربة عله يستفيد ويعرف أين الحق وأين الخطأ، وبين له بتجربة عملية ما هو الطيب، وما هو الخبيث حتى يتجنب الخطأ فى الدنيا، و يعرف أن الشيطان عدو له، ولكن الإنسان بما أعطاه من اختيار ابتعد عن الطيب، واختار الخبيث.

❁ ❁ ❁

---

(١) وفى معنى هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفى الفارغ»، ويعنى بالمكفى: الذى يكفيه غيره ضرورات الحياة؛ وبالفارغ: المتعطل المخلد إلى البطالة والكسل. ذكره السيوطى فى زيادة الجامع الصغير عن أنس رضى الله تعالى عنه، وقال الألبانى فى الضعيفة [٢٧٥٧]: ضعيف جدا، وضعيف الجامع [٨٦٧/ ٣٠٤].

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده [٤٣٨٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وقال محققه: إسناده لين، والطبرانى فى المعجم الأوسط [١/ ٢٦٦/ ٨٦٧].

مهمة الإنسان فى الأرض

لنبدأ من البداية لنعرف ما هى مهمة الإنسان فى الأرض، ونعرف كيف حدد الله له هذه المهمة، وماذا فعل الإنسان بتكليف من الله، وما هو الحل لمشاكل هذا العالم؟

خلق الإنسان هو غيب عنا، فلم يشهد أحد منا كيف خُلق حتى يستطيع أن يقول إن الإنسان خُلق هكذا، أو حدث له كذا وكذا، أو يفتى فى كيفية الخلق، بل إن خلق السماوات والأرض هو غيب عنا فلم نشهد خلقهما حتى نصل إلى حسم هذه النقطة بالذات نقول إن كيفية الخلق فى كل شىء هى غيب عنا وإنها علم اختص به الله سبحانه وتعالى ذاته الكريمة لا يعرف أحد عنه شيئاً، وفى هذه يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

ومن هنا فإن هذا الموضوع محسوم، ومادام الخلق غيبا عنا لم يشهده أحد، فلابد أن نأخذ العلم منه عن الخالق سبحانه وتعالى، فإذا روى الله لنا كيف خلق السماوات والأرض وكيف خلق الإنسان، فكلام الله هو المصدر الوحيد للعلم فى هذا الموضوع، وكل كلام بشرى يدور حول ذلك هو كلام مرفوض لا يستحق المناقشة لأنه كلام ممن لم يخلق ولم يشهد الخلق، ولم يشهد خلق نفسه.

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن نتنبه إلى عنصرين أساسيين، هما من تمام عدل الله سبحانه وتعالى وقدراته.

العنصر الأول: أن الله أعد الأرض للإنسان ليستطيع الحياة عليها.

والعنصر الثانى: أن الإنسان قبل أن ينزل إلى الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى تجربة عملية مر بها، وكانت هذه التجربة فى وضوحها كافية لترى الإنسان ما هو منهج الحياة، وماذا سيلاقى، وكيف يواجه ما سيلاقيه.

هذان هما العنصران الأساسيان فى إعداد الإنسان للحياة على الأرض، عطاء الله سبحانه وتعالى يوفر للإنسان مقومات حياته، وتجربة تعطيه مفهوم الحياة وتبين له الحق والباطل، وتريه رؤية العين ماذا يفعل الزيف، وماذا تفعل الحقيقة.

وكان العنصر الأساسى الأول هو أنه ما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى استدعى الإنسان للوجود، فلابد أن يوفر له مقومات حياته الأساسية، ومن هذا المنطلق خلق الله تعالى الكون بتمام قدراته، وقبل أن يخلق الإنسان، خلق الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض والماء والهواء، وخلق النبات والحيوان، كل هذا خلقه ليكون مسخرا لخدمة

الإنسان فى الأرض، فخلق الله أجناس الوجود بعضها تخدم بعضا، وكلها تخدم الإنسان.

فالجماد خلقه الله ليخدم أجناس الوجود كلها، وهى النبات والحيوان والإنسان، فالجماد هو فى خدمة الكون كله، ثم يأتى بعد ذلك النبات، وهو يخدم الحيوان والإنسان فيعطيهما مقومات الحياة من الطعام وغيره، ثم خلق الحيوان الذى يتغذى على النبات، فجعل الله الجماد والنبات فى خدمة الحيوان، ثم خلق الإنسان الذى جعل كل ما فى هذا الكون من جماد ونبات وحيوان مسخرا له.

وقد تم الخلق بكمال قدرات الله سبحانه وتعالى، وكل ما خلقه الله فى الكون لم يستعن فيه بأحد، فملك الله هو من خلق الله بكمال قدراته؛ ولذلك فلو آمن من فى الأرض جميعاً ما زادوا فى ملك الله شيئاً، ولو كفروا جميعاً ما نقصوا من ملك الله شيئاً.

وهكذا شاء عدل الله أن يعطى للإنسان كل مقومات حياته قبل أن يخلقه ليمارس مهمته فى الأرض، ولكن بعض الناس يقول: إن مقومات الحياة قد تغيرت، وإن العلم والحضارة قد أعطيا للإنسان من مقومات الحياة ما لم يكن موجودا عند بدء الخلق وبدء الخليقة؛ نقول: إن هذا غير صحيح، فالحضارة لم تخلق مقومات الحياة، ولكنها وضعت فى حياة البشر نوعاً من الرفاهية، وليس أكثر من ذلك، وإنما مقومات الحياة هى من خلق الله سبحانه وتعالى، فلا يمكن أن يدعى العلم أنه خلق الماء، ولكنه يمكن أن يقال إن العلم قد أضاف الرفاهية إلى استخدام الماء، فبدلا من أن كنت تضطر لأن تذهب إلى البئر، أو إلى النهر لتشرب، جاء العلم لكى يصل الماء إلى مكانك بحيث تستطيع أن تحصل عليه فى الحجرة أو الشقة التى تعيش فيها بواسطة المواسير التى تحمل الماء إليك، وأضاف العلم إلى ذلك أنه يستطيع أن يعطيك الماء مثلجا فى الصيف، وساخنا فى الشتاء بعمليات ميكانيكية ولكن هل خلق العلم لك الماء؟ الجواب: طبعا لا.

ونمضى فى التساؤل هل خلق العلم الهواء؟ الجواب: طبعا لا، ولكنه اخترع أجهزة لتنقى الهواء من شوائب المصانع، وأجهزة تكييف تجعل الجو باردا أو حارا حسب رغبتك.

إذن.. هو أضاف الرفاهية، ولكنه لم يخلق، هل خلق العلم الأرض والنبات مما يأكله الناس؟ الجواب: طبعا لا، فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الأرض، أو خلق حبة واحدة من النبات، ولكن الذى حدث أن العلم قام بنوع من التهجين لتصبح الثمرة أكثر حلاوة، أو لتعطى البذرة محصولا أوفر بجهد أقل، أى إنه أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق شيئا، وهكذا فى الكون كله إذا نظرنا للعلم فإنه مجرد إضافة للرفاهية، أراد الله سبحانه وتعالى أن ييسرها لخلقه فبدلاً من أن أذهب مثلا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم أصبحت أشاهد هذه المباراة وأنا جالس فى منزلى عن طريق التلفزيون، فالإنسان استخدم الغلاف أو خصائص الغلاف الجوى الذى خلقه الله فى أن يوفر الرفاهية لتنتقل الصورة من مكان

إلى مكان فى ثوان معدودة، ولكن العلم لم يخلق العينين اللتين أرى بهما، أو الغلاف الجوى الذى ينقل الصورة، وهما الأساس لما حدث.

وكان الإنسان يسافر ماشيا، فهداه الله إلى استخدام الأنهار، والسيارات، والطائرات، كل هذه لم تعط الإنسان الحركة ولكنها يسرتها له، فالإنسان مازال قادرا على أن يستغنى عن كل هذا، ويسافر على قدميه أو على دابة من مكان إلى آخر، كل ما حدث هو أن المشقة رفعت وأتى العلم بالرفاهية إلى حياة البشر، ولكن ضروريات الحياة خلقها الله ولم يخلقها العلم.

الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعلها لحياة الإنسان، فجعل فيها مسطحات هائلة بالماء لتمد الإنسان بالمطر والماء العذب اللازم للحياة، وأودع فى الأرض أرزاقها، فجعل مخازن الطعام فى الجبال التى فيها الطمى الخصب، ينزل المطر ويجرفه إلى الأنهار ليغذى الأرض فتصبح صالحة للإنبات فيخرج الزرع مختلفاً ألوانه ليأكل منه الناس، وقدر الله فى الأرض رزقها إلى يوم القيامة.

وهنا نقف لنتساءل، ماذا عن المجاعات التى تحدث فى العالم مع أن الله كفل الرزق والكفاية للجميع بعطاء ربوبيته؟ نقول: إن ذلك من صنع الإنسان فهو الذى كفر بنعمة الله وبددها فالنبات الذى تخرجه الأرض يكفى الناس جميعاً ليأكلوا، بحيث لا يوجد جائع واحد، ولكن ما الذى يحدث؟ البشر بدأوا يحجبون رزق الأرض عن الإنسان، فنرى دولة كالبرازيل تلقى الملايين من البيض فى البحر حتى لا ينخفض سعره فتحرم ملايين البشر من رزق يسره الله لهم لتحقق جشعاً إنسانيا، ونرى دولا أخرى تحرق البن حتى تحتفظ بسعره مرتفعا فى العالم، ونرى دولة كأمريكا مثلا تدفع للزراع مئات الملايين من الدولارات حتى يتركوا الأرض بدون زراعة بالنسبة للقمح، وعدد آخر من المحصولات حتى يحتفظوا بسعره العالمى كما يقولون، وهكذا نرى أن الأرض تنتج ما يكفى البشر أو يزيد، ولكن جشع الإنسان هو الذى يحجب هذا الطعام عن أخيه الإنسان فتحدث المجاعات، بل وأكثر من ذلك أن عددا من الدول التى تملك أراضى صالحة للزراعة مشغولة بتوافه الدنيا والمنازعات والحروب عن أن تجعل الأرض تنفعل بها وتعطيها الثمار.

ومن معجزات الله فى خلقه، أنه كلما زاد تعداد العالم كشف الله من العلم للإنسان ما يمكنه من أن يزيد إنتاج الأرض، فكل الاكتشافات العلمية الجديدة التى يسرها الله لخلقه بالنسبة للزراعة لو تتبعناها لوجدنا أنها تزيد من إنتاج الأرض كلما زاد عدد سكانها، وهكذا تمضى الحياة بدقة إلهية متناهية لتخلق فى الأرض رزقا جديدا لكل فم جديد يولد، ولو وزع إنتاج الأرض بالعدل على البشر كلهم لما وجد جائع.

إذن.. فالمجاعات هى من ظلم الإنسان وإفساده فى الأرض، بل إننى أزيد على

ذلك أنه كلما قدر الله عدم نزول المطر على جزء من الأرض، زاد الإنتاج في الأجزاء الأخرى بحيث لو نقلنا هذه الزيادة لعالجت الذي وجد، وهذا من عدل الله، فلا يمكن أن يحدث جفاف في العالم كله، أو في أجزاء كثيرة في وقت واحد، بل الجفاف يحدث في جزء صغير يكون باقي الإنتاج قادرا على أن يسده ويعالجه.

خلق الله الأرض، وقدر فيها أقواتها إلى يوم القيامة وقدر فيها رزقها، وخلق الشمس ولها مهامها في الحياة، سواء في الضوء الذي تعطيه في النهار، أو في البخر الذي تسقط به الأمطار، أو في إنماء الزرع، أو في غير ذلك، وخلق الكون كله في نظام بديع متكامل لخدمة الإنسان وإعطائه مقومات الحياة، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾ [فصلت].

وهكذا تم إعداد الأرض ليعيش فيها الإنسان ووضعت له فيها كل مقومات حياته، وضعت له بقدرة الله مسخرة له من الله سبحانه وتعالى، فوجد الماء ووجد الطعام ووجد الحيوان، وكان كل ذلك في خدمة الإنسان ومعدا له قبل أن يخلق الإنسان ويسكن الأرض، وهو معد إعدادا من لدن حكيم خبير وضع للأرض والسماوات نظاما دقيقا لا يختل مصداقا لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝﴾ [الرحمن].

وهكذا نرى أن كل شيء في الكون خلق بحساب دقيق، الشمس لا تتأخر ثانية عن موعد شروقها، والأرض لا تتوقف برهة عن الدوران، والنجوم، والجبال، والأنهار، كلها تمت بصنع دقيق لتلائم مهمتها وبقيت ملايين السنين، و ستبقى إلى قيام الساعة لا يحدث على عظم مهمتها خلل ولو جزءاً من الثانية، لأنها من صنع الله العليم القدير، وليست من صنع الإنسان الذي تفسد صنعته بعد سنوات قليلة وتحتاج إلى إصلاح وإصلاح.

نأتي بعد ذلك إلى خلق الإنسان، أعد الله سبحانه وتعالى الأرض ووضع فيها كل مقومات الحياة، وخلق الإنسان ليؤدي مهمته في الأرض ولنبدأ قصة الخلق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝﴾ [ص]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين، ومن صلصال، ومن حمإ

مسنون، ونحن نأخذ كيفية الخلق عما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى خلق وكما بينا لقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فإذا جاء بشر يجادل فى خلق السماوات والأرض ويجادل فى خلق الإنسان ويقول إن السماء والأرض كان أصلهما سحابة أو ذرات خامدة، أو أن الإنسان نشأ بنظرية التطور والارتقاء، كما ادعى داروين أو غيره ممن جادلوا فى خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، نقول لهم: نحن نعرفكم أنتم المضلون الذين أنبأنا الله عنهم فى القرآن الكريم، والذين يأتون ليجادلوا فى خلق السماوات والأرض والإنسان، لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بمجيئكم قبل أن تأتوا، وحذرنا من أنكم ستأتون للإضلال عن سبيل الله، ومجيؤكم هو تثبيت للإيمان فى قلوبنا لأنكم لو لم تأتوا ولو لم تحاولوا الإضلال عن منهج الله بنظريات كاذبة لقلنا إن القرآن أنبأنا أن هناك مضلين سيأتون ليجادلوا فى خلق السماوات والأرض، وفى خلق الإنسان، فأين هم؟ ولكن كونكم أتيتم وجئتم بهذه النظريات الكاذبة التى تحاولون بها نشر الكفر والإلحاد، فإنكم بذلك تثبتون قضية الإيمان، فالله لم يشهدكم عملية الخلق، ولم يطلب منكم العون فى خلق الكون والإنسان حتى تدعوا ما تدعونه، والله قد اتخذ منكم - وأنتم تحاولون نشر الكفر والإلحاد - دليلاً على صدق الإيمان، وصدق القرآن، والله فى كونه يُسخر المؤمن والكافر لخدمة قضية الإيمان.

نأتى بعد ذلك إلى الخلق كما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى، لقد قال الله إنه خلق الإنسان من طين ومن صلصال ومن حمإ مسنون، ثم نفخ فيه من روحه، ونحن لم نشهد الخلق، ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكل قضية غيبية عنا قضية مادية مشهودة تقرب المعنى من عقولنا، ونحن لم نشهد الخلق، وهو بداية الحياة، ولكننا نشهد الموت وهو نقض للحياة، ونقيض الشىء يكون عكس بنائه، فإذا بدأت بناء عمارة فأنت تبدأ بالدور الأول، فإذا أردت هدمها فإنك تبدأ بما انتهيت إليه، فتبدأ بإزالة الدور الأخير، ثم الذى تحته، ثم الذى تحته، وأنت إذا ذهبت من القاهرة إلى الاسكندرية فأول ما تبدأ به هو خطوة تبعدك عن القاهرة وتقربك من الاسكندرية، فإذا أردت أن تعود فإنك تبدأ عند النقطة التى انتهيت إليها وهكذا طبيعة الأشياء.

آخر ما دخل فى الإنسان حسب قول الله سبحانه وتعالى هو الروح؛ ولذلك عند نقض الحياة فإن أول ما يخرج منك هو آخر ما دخل فيك وهو الروح، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصير كالحمإ المسنون، أى الطين الذى فيه صلابة الفخار، ثم يصير طريا كالصلصال، ثم يصبح طينا يذهب الماء فيه إلى الأرض، ثم تحلل عناصر الطين التراب ويعود الإنسان إلى العناصر الأولى التى خلق منها، وهكذا كأن الموت دليل على الخلق وهو دليل مشهود لنا يعطينا بالحس المادى الذى نراه طريقة هدم الحياة التى هى عكس بنائها.

نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾.

وحينما نأتى إلى أى صفة من صفات الله، أو فعل من أفعاله؛ فإننا لابد أن نرفع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، لأن الفعل يتناسب دائماً مع القدرة، فلله يد، ولكل منا يد، ولكن هل يد الله كأيدينا؟ طبعا لا.. حين نصل إلى ذلك لابد أن نرفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، ليس كمثله شىء، ولذلك فإن هذا يقع فى يد القدرة التى لا يدركها العقل والتى لابد أن نقف أمامها من دون أن نحاول أن نضيف أكثر من الله سبحانه وتعالى وليس كمثله شىء.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾.

والروح هى أمر من أمور الله، وكل الأبحاث التى تجرى عن الروح هى مجرد عبث، ذلك أن الروح لا يمكن أن تضعها فى معمل، ولا أن تجرى عليها التجارب حتى تصل إلى الحقيقة، والبحث عن الروح يشغل الإنسان منذ بداية الحياة، ذلك أنها سر الحياة الذى عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين، ورغم أن الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى وكل ما يقال عنها ظن وتخمين يفتقر إلى الدليل، فإن الإنسان مازال يحاول أن يعرف شيئاً لقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الإنسان عندما يحتضر على الميزان، ووجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه، فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح، والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا، والكافرون ينكرون وجود الروح ويسمونها الزمن أو الطبيعة.

وحيرة البشرية كلها سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهناك الروح، وهناك النفس، فالنفس هى التقاء الروح بالمادة، أو امتزاج الروح بالمادة، هذه هى النفس؛ ولذلك فإن التكليف من الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية، أو لفترة الحياة التى تلتقى فيها الروح والجسد، فالله لا يكلف الروح وحدها شيئاً بعد أن تخرج من الجسد، ولا قبل أن تدخل فيه، والله لا يكلف الجسد شيئاً إذا خرجت منه الروح، ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة فهنا تنشأ الحياة الأرضية، أو تنشأ النفس التى تمر بمرحلة الاختبار فى الالتزام بمنهج الله فى الأرض، ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس].

إذن.. الله سبحانه وتعالى بين طريق الإيمان وطريق الخطأ والمعصية للنفس البشرية، أى فى الفترة التى تلتقى فيها الروح بالجسد، أى إن الله بين منهجه للنفس فقال: أفعل ولا تفعل، وقال: هذا خطأ وهذا صواب، وبين طريق الجنة للنفس البشرية، والتكليف الإلهى هو فى فترة الحياة الدنيا وحدها، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [يس].

وإذا أردنا أن نفهم كلمة الروح، فإنها ذلك السر الإلهى الذى يهب الحياة للمادة، أو الذى تحيا به المادة، أو بشكل آخر هو إرادة الله لها أن تحيا، فإذا سلب الله الإرادة ذهبت الحياة بشكلها الدنيوى وانتهت واختفت، ولذلك يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا كأنها فترة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ثم يرحل؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مالى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»[1].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولابد هنا من الإشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فكأنما الحياة عند الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية هى فى الآخرة فى اتباع منهج الله ذلك أنها حياة الخلود التى تساوى أن تسمى حياة بمقوماتها التى يريدها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ولذلك فإن الله يذكرنا أن اتباع منهجه فى الدنيا هو الذى يعطينا الحياة المنعمة الطيبة التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة حيث أعد لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن الحياة الدنيا إنما هى فترة قصيرة لا تساوى شيئا، وإنما هى فترة اعتبار للنفس البشرية لتقودها إلى الحياة الطيبة الخالدة، ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

أى إن الله يريد أن يلفتنا إلى أن الحياة التى يعمل الإنسان لها لو أوتى العلم والذكاء هى الحياة الآخرة، ولذلك فهو يحذرنا من أن تفتننا الحياة الدنيا التى هى لعب ولهو، والتى هى متاع الغرور عن الحياة الآخرة التى هى حياة الخلود والنعيم، والتى لابد لكل إنسان عاقل أن يعمل من أجلها، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الحياة الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى فيها كافرا شربة ماء»[2].

---

(١) روى أحمد فى المسند [١/ ٣٩١] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه بلفظ: «مالى وللدنيا ما أنا والدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها». وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) روى الترمذى [٢٣٢٠]، وابن ماجه [٤١١٠] عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» وصححه الألبانى.

إذن . . فالنفس البشرية هى التقاء الروح بالجسد لتهب له الحياة ونعود للآية الكريمة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾.

وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح، كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح، ومم تتكون؟ وكيف تهب الحياة للجسد؟ ثم تذهبها عنه وهنا رد الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

أى: إن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة، الله سبحانه وتعالى يقول إن علمكم الأرضى الذى تظنون أنه كثير وهو فى الحقيقة أقل القليل، علمكم هذا لن يصل بكم إلى سر الروح، أنتم تسألون ما هى الروح؟ وأنا أقول لكم إن علم البشرية كلها لن يصل إليها، بل لن يصل إلى أسرارها، وأقول هذا يقينا وهذا تحد من إعجاز القرآن الكريم، فمازالت البشرية بكل علمها وعلمائها عاجزة عن أن تقترب من الروح، أو تكشف سرا واحدا من أسرارها.

بل إن تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح، وهى تعيش فى جسد بشرى، يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم شيئاً عنها، كيف جاءت؟ وكيف خرجت؟ بل إنك تسأل أعلم علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا استحياء، ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله.

أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله ويعلنون الكفر والإلحاد ويطالبون أن يروا الله نقول لهم: إن الله برحمته قد أظهر لنا فى هذه الحياة الدنيا جهلكم وأنتم تدعون العلم، فالروح فى أجسادكم معكم فى رحلتكم من المهد إلى اللحد. . أو من الميلاد إلى القبر.

وأنا أسألكم يا من تدّعون العلم أين هى الروح التى فى أجسادكم؟ هل هى فى القلب الذى ينبض؟ أو فى العقل الذى يفكر؟ أو فى القدم التى تمشى؟ أو فى اليد التى تبطش؟ أو فى اللسان الذى يتكلم؟ أو فى الرئة التى تتنفس أين هى؟ وأين مكانها؟

والجواب طبعا أن أحداً لا يستطيع أن يحدد مكانها، فنقول لهم: ما هو شكلها؟

فيقفون صامتين بلا جواب.

فنقول لهم: هل هى موجودة؟

فيقولون: نعم موجودة لأنها تعطينا الحياة.

فنقول لهم: إذا كانت الروح وهى موجودة وجودا يقينيًا فى كل كائن حىّ قد عجزتم عن تحديد مكانها أو شكلها، أو أن تروها رؤية العين، ومع ذلك فهى موجودة وجوداً يقينيًا، إذا كان ذلك المخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى لا تستطيعون الإحاطة به، فكيف تريدون رؤية الله وتقولون لن نؤمن حتى نرى الله جهرة وأنتم عاجزون عن أن تروا الروح وهى مخلوق من مخلوقات الله فى أجسادكم، ألا يصيبكم الخزى وأنتم تجاهرون

بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله جل جلاله؟ ألا تكفى هذه التجربة لتبين لكم أنكم تفترون على الله؟ وكان من الأجدر بكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الإعجاز وتوقنوا بوجود الله وبعظيم علمه وتسجدوا له وتسبحوه.

ولكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية؟ لأنه أولاً دليل قدرة، وثانيا دليل الوجود بلا رؤية، وثالثاً لأن حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم لن تفيدك شيئا فى حياتك الدنيا، فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها.

ولكى نقرب هذا المعنى إلى القارئ نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد خلق أشياء كثيرة لا تقتضى الاستفادة بها علما من المستفيد، فالكهرباء مثلاً أستفيد بها، سواء علمت أو لم أعلم، فالأمى الذى لا يقرأ يضع يده على الجرس فيحدث رنينا، وعلى مفتاح النور فتضىء الحجرة، هل يعرف هذا الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة الكهرباء؟ أبدا.. ولكنه ينتفع بها.

بل أنت فى حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئاً عن حقيقتها، هل يعرف كل من يركب الطائرة نظريات الطيران؟ وهل يدرى كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمة؟ وهل يعرف كل من يشاهد برنامجاً تليفزيونيًا ينقل بالقمر الصناعى كيف يتم الاتصال أو نقل الصوت والصورة عن طريق الأقمار الصناعية؟ وهل لو جهل من يزرع الأرض أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها، هل لو جهل هذه الحقيقة لا يستطيع الاستفادة من الأرض فى أن تنتج له ما يريد من طعام؟

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية فى أشياء أقول عنها ينتفع بها ملايين الناس بدون أن يعرفوا سرها لأقول: إن الله سبحانه وتعالى برحمته عندما يحجب الروح عنا فإن ذلك لا يؤثر فى انتفاعنا بهذه الروح فى رحلة الحياة.

إذن.. أنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة وإن كنت تجهل ما هى ولا يعنى ذلك أنه مادام الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها، إنها فى داخلك فى كل خلية من جسدك تهبها الحياة والحركة.

نعود إلى قول الله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.

ماذا تعنى كلمة أمر الله؟ القرآن الكريم يبين لنا ذلك؛ فالله يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

إذن.. أمر الله بالنسبة لنا هو إرادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا، هو التفسير لمعنى الأمر من الله سبحانه وتعالى، أى الإيجاد بكلمة ﴿ كُن ﴾ والخروج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى، إلى علم غير القادر وهو الإنسان بكلمة ﴿ كُن ﴾، وهذا الخروج يحدث ليباشر الشىء دوره ويؤدى مهمته فى الكون، فأمر الله سبحانه وتعالى يكون إيذانا بأن يباشر الشىء مهمته فى الكون بكلمة ﴿ كُن ﴾.

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝ ﴾ [القيامة].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ [الواقعة].

والله سبحانه وتعالى يتحدث فى هذه الآيات عن الروح وهى تغادر الجسد، وهى تخرج منه؛ إنه يتحدث عن لحظة الموت، لحظة الفراق بين الجسد والروح، والله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح، يتحدث عن شىء له دخول وله خروج، أى عنصر تام، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يهب للجسد الحياة وحدث ذلك بكلمة: ﴿ كُن ﴾ دخلت الروح إلى الجسد لتعطيه الحياة، فإذا جاء بعض العلماء وقالوا إنهم وضعوا عددا من الذين يحتضرون فوق ميزان حساس ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءا فجائيا من وزنه وأنهم يدللون بذلك على أن الروح لها وزن يسير، نقول لهم: إن ما تقولونه ليس علما، ولكنه ظن فقط، أى إنكم تظنون ذلك، فقد يكون هذا الوزن يفقد نتيجة كمية من الهواء خرج من الجسد فجأة، أو توقف سريان الدم أو نتيجة أى تفاعل مادى يحدث ساعة الوفاة وأن هذا لا يعنى يقينا أن الروح لها وزن، ولذلك فإن البحث العلمى على أن الروح لها وزن أو ليس لها وزن مجرد عبث.

ونكون وصلنا بذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم بيديه، ونفخ فيه الروح، وبينا عناصر الخلق، والذين يجادلون فيه بغير علم، ثم تحدثنا عن النفس البشرية التى هى التقاء الروح بالجسد، وعن الحياة الحقيقية التى هى فى الآخرة.

ونصل إلى أمر الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم آدم تكريما عظيما يليق بمهمته فى الحياة، كخليفة لله فى الأرض، فبعد أن خلق له هذا الكون كله بشمسه، وأرضه، ونجومه، وقمره، وبحاره ليستقبله، ويكون فى خدمته، أراد أن يكرمه عند بداية الخلق، وكان أول إخبار من الله سبحانه وتعالى للملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة هى قبل خلق آدم؛ مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ ﴾ [الحجر].

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى أنه أخبر الملائكة بخلق آدم قبل إتمام الخلق؛ فقال سبحانه وتعالى للملائكة: إنه سيخلق بشرا من صلصال من حمإ مسنون، ثم أصدر الله سبحانه وتعالى أمراً للملائكة أنه ساعة إتمام خلق آدم أن يسجدوا له، هذا السجود قد يكون لعظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض، وقد يكون لعظم التكريم الذى جعله الله لآدم فى الآخرة، وقد يكون تفضيلا لآدم من الله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الأسراء: ٧٠].

ما هو معنى عظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض؟ هذه المهمة تتلخص فى أنه حمل الأمانة، وتلك مهمة كبيرة، وحمل ثقيل حمله الإنسان فى حياته فى الأرض، ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ما هى الأمانة فى معناها الواسع؟ وما هى الأمانة التى حملها الإنسان؟ الأمانة فى معناها الواسع أن تُودِع شيئاً لدى أى شخص من الأشخاص بشرط أن يكون هذا الإيداع ليس عليه دليل مادى، أى إنه يكون بينك وبينه، فإذا أعطيت إنساناً مبلغاً وكتب لك شيكاً بهذا المبلغ أو الكمبيالة له، فهذا ليس أمانة ولكنه دين، فإذا لم يكن هناك دليل مادى على أنك أودعت عنده هذا المبلغ فهذه أمانة، ولقد حدد الله سبحانه وتعالى معنى الأمانة فى القرآن الكريم بمعناها الواسع فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى أن الدين هو الذى يقوم عليه صك مكتوب، أو ورقة مكتوبة؛ ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

إذن.. فالأمانة هى دين لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب، وذلك كأن أتى إلى شخص وأودع لديه مبلغاً من المال وأقول هذه أمانة عندك حتى العام القادم مثلاً، قد يقبل هذا الشخص الأمانة و يقول لى: أعطها لى وهى فى الحفظ والصون، إلى أن تأتى العام القادم فتأتى لتأخذها وتجدها كما هى، وقد يخاف الشخص من نفسه ويقول: اعفنى من هذه المهمة إن يدى ستمتد إليها، ولن أستطيع أن أحمل هذه الأمانة، ولذلك فأنا أرفضها، ونوع ثالث من الناس يُبدى استعداداً وتحمساً ليتقبل الأمانة، فإذا أصابه ضيق مادى، أو احتاج إلى شىء، امتدت يده إليها ليأخذ منها على أنه سيعيد ما أخذ من قبل أن يأتى

موعد رد الأمانة، ثم يحتاج فيأخذ ويأخذ على أمل أنه سيرد، ثم يفاجأ عند مجيء موعد الرد؛ بأنه قد بدد الأمانة وعجز عن ردها، وهذا هو معنى الأمانة العامة وهو معنى أوضحه الله في القرآن الكريم في سورة البقرة إيضاحا لا يحتمل أي نوع من التأويل.

فإذا كان هذا هو المعنى العام لكلمة الأمانة؛ فما هي الأمانة التي حملها الإنسان؟ إنها منهج الله في الأرض، وحرية الاختيار في أفعل ولا تفعل، ذلك أن الله سبحانه وتعالى حين خلق السماوات والجبال وغيرها من المخلوقات عرض عليها الأمانة، أي إن يأتمنها الله سبحانه وتعالى على منهجه ويعطيها الحرية في أن تفعل ولا تفعل فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم، وإن خالفت المنهج وعصت استحقت العذاب في النار.

عرض الله هذا على السماوات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات، فقالوا: يا رب لا نستطيع أن نحمل الأمانة، إنا نخاف ونشفق على أنفسنا منها ونخشى ألا نستطيع أن نؤدي أمانة المنهج الذي تريد أن تحمله لنا، فإن هذه المهمة تحتاج إلى جهد عظيم، فيارب اجعلنا مقهورين غير مختارين، مقهورين على طاعتك غير مختارين في أن نعصى، ولكن الإنس والجان قبلوا أن يحملوا الأمانة وقالوا: يا رب نحن قادرون على ذلك حملنا الأمانة، وسنكون أمناء على المنهج وسنطيع ولا نعصى.

ولعظم هذه المهمة التي حملها الإنسان، فإن الله سبحانه وتعالى يصفه بصفتين فيقول: إنه كان ظلوما جهولا، وظلوم معناه أنه كثير الظلم، وجهول أنه عظيم الجهل، لأنه لم يُقدّر عاقبة ما اختاره، فهو بهذا الاختيار قد ظلم نفسه فحمّلها ما لا يقدر الضعف البشري في كثير من الأحيان أن يتحمله هذه واحدة، ولأنه - أي الإنسان - يجب أن يتميز كل واحد منهم عن غيره، فهذا يريد أن يأخذ حق هذا، وهذا يريد أن يستبيح حرمات غيره وهكذا، والله نهى عن ذلك، ولكن هوى النفس يدعو الإنسان إلى أن يأخذ ما ليس له بحق، وهكذا كان الإنسان كثير الظلم، كل واحد منا يظلم، فهو ليس ظالماً، ولكنه ظلوم، مضافاً إلى ذلك أن الإنسان قد أخذ حق المعصية، فما دام الله قد قال: أفعل فالإنسان قادر على ألا يفعل، وما دام الله قال: لا تفعل، فالإنسان قادر على أن يفعل، وهذه المقدرة التي وهبها الله للإنسان، أو أعطاها له قد ملأت نفسه بالغرور، والغرور هو الطريق السريع إلى المعصية، وإلى الظلم والاستبداد في الأرض، وهكذا من كل ناحية كان الإنسان كلما حمل الأمانة، ظلوماً لنفسه، ظلوماً لبني جنسه.

وكان الإنسان جهولاً، أي عظيم الجهل؛ لماذا؟ لأنه وقد أخفى عنه الجزاء للمعصية استهان به، فلو أن الجزاء كان حاضرا، أي إننا نراه أمامنا، ما جرؤ واحد منا أن يرتكب معصية، ولكن لأن الجزاء غيب عنا، فإننا بجهلنا نستهين بعذاب الله، فلو أننا أحضرنا معاصي الدنيا كلها بكل ما فيها من مال وشهوات وزينة، وأعطيناها لإنسان ثم قلنا له هذه كلها لك، تمتع بها كما تريد وكما تشتهي، ولكن قبل أن تتمتع وحتى تكون عادلين

نريد أن نريك النتيجة، ثم فتحنا له باباً فرأى نار جهنم وقلنا له: بعد أن تمضي فترة عمرك في هذه المعاصي كلها بكل ما تمنحه من زينة وجاه وسلطان وشهوة سنأخذك إلى هنا، إلى جهنم لتبقى فيها خالدا.. لو أننا قلنا له هذه الكلمات وفتحنا له أبواب جهنم ما اقترب من معصية أبدا، ولكن لأن هذا أخفى عنه، ظن الإنسان أن لا علم إلا علمه، ونسى علم الله الواسع الذى لا تحده حدود.

وهو جهول لأنه سيعبد الدنيا بقصر نظره بعد علمه يقيناً بأنه سيخرج منها، فلا يوجد إنسان إلا ويعرف يقيناً أنه سيموت، وأن أجله سيأتى ولكن لا يوجد إنسان يحسب أو يؤمن أنه قد يموت غدا، فمهما بلغ به العمر فالأمل داخل نفسه أنه سيعيش سنوات وسنوات، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت»[1]، ذلك أن الإنسان رغم علمه اليقينى أنه سيموت فإنه كان فى شك بأن هذا لن يحدث لسنوات طويلة.

والإنسان جهول لأنه فى داخله فطرة الإيمان التى فطره الله عليها، وحوله الكون الذى سخره الله لخدمته يرى فيه كل يوم آيات الله عن قوى أكبر منه وتستطيع أن تدمره، ولكنها مسخرة لخدمته وطاعته، فالشمس تستطيع إن اقتربت من الكون أن تحرقه فى دقائق، ولكنها لا تجرؤ إلا أن تشرق فى موعدها، وتبقى فى مكانها تخدم الإنسان بالضوء، وفى الطعام، وفى تكوين السحب لإنزال المطر.. إلى آخره.

والبحر يستطيع أن يُغرق الأرض فى لحظات محدودة، ولكنه يبقى فى مكانه مسخراً ليحمل السفن والإنسان، ويعطى الإنسان الطعام والحلى، ويرى فيه الإنسان من عجائب خلق الله، والأرض بزلزالٍ هائل تستطيع أن تُفنى البشرية، ولكنها تستمر مسخرة للإنسان خاضعه له فى مقومات حياته، تلك القوى لم يخلقها الإنسان حتى نقول إنه سيطر عليها؛ لأنه خالقها ولا يستطيع أحد من البشر أن يدعى أنه خالق هذا الكون، ولكن الله الذى قال لنا إنه هو الخالق ورغم أن الإنسان يرى الإعجاز فى تسخير هذا الكون له بكل القوى الهائلة الموجودة فيه، ويعلم يقيناً أن الله هو الذى خلق هذا كله، لأن الله أخبرنا بأنه هو الذى خلق ولم تجرؤ أى قوة أخرى أن تدعى لنفسها الخلق، رغم هذه الآيات الظاهرة فإن الإنسان بعظيم جهله يعبد حجراً، أو يعبد حيواناً، أو يعبد إنساناً مثله.

والله سبحانه وتعالى حين أعطانا الأمانة وحملناها، كان لابد أن يميزنا بعقل حتى نستطيع أن نختار بين البدائل، فالعقل مهمته الاختيار بين البدائل، أما فى باقى المخلوقات التى اختارت طاعة الله جبراً فتحكمها قوانين غريزية.

ولذلك كان الحساب يقف حين يتعطل العقل عن أداء مهمته، فالمجنون يسقط عنه

(١) سبق توثيقه.

التكليف ولا يحاسب، والطفل الذى لم يبلغ الحلم أو مبلغ الرجولة والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق وأن يميز لا يجرى عليه القلم، وهكذا فإن مناط التكليف هو العقل ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد حرم كل ما يعطل العقل عن عمله أو يفسده أو يجعله ينحرف عن مهمته، فحرم الخمر تحريماً قاطعاً لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة؛ فقال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

فهى ليست محرمة فقط، ولكن القرب منها بالجلوس فى مجالسها ممنوع، وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات، لأن مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهى الذى ميز الله به الإنسان وهو العقل، فالعقل هو أساس الرقى فى حياة الإنسان، وإذا أردت أن تعرف ذلك أقول لك: أرأيت جيلاً من الحيوانات يعقد اجتماعا ليبحث فيه كيف يرتقى بمعيشته، وينشئ له حظائر على أحدث نظام، ويغير طعامه بطعام أفضل، ويخترع الدواء لأمراضه، ويحاول حل مشاكله بنفسه أرأيت جيلاً من الحيوانات يفعل ذلك؟ أرأيت حيواناً حين يُوضع أمامه الطعام يقول: أنا آكل هذا ولا آكل ذلك، هذا الصنف من الطعام أفضل، أو يقول سأوفر جزءا من الطعام إلى الغد، أو يقول سأدخر جزءا من الطعام الذى أمامى للأيام القادمة، أرأيت حيوانا حين يشبع يظل يأكل، ولو أنك ضربته مهما ضربته ليأكل أكثر فهل يستجيب لك.

كل هذه التصرفات كفلها الله سبحانه وتعالى بالغريزة تحكمها، ولذلك فإن هذه الغريزة تحرس حياة الحيوان، فلا يأكل عودا من البرسيم أكثر من حاجته فيصاب بالتخمة، ولا يخلق المشاكل فى حياته فتتعقد، ولا يبقى طعام اليوم إلى الغد أو بعد غد فيصيبه القلق والأسى، ولكنه يتصرف بغريزته ويأخذ حاجته فقط، حياته من مولده إلى يوم القيامة هى الحياة نفسها التى وضعها الله له، فهو لا يرتقى بنفسه ولا يطلب شيئاً غير موجود.

ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة أعطاه الله العقل مناط التكليف، فهو بعقله يستطيع أن يختار بين البدائل التى خلقها الله سبحانه وتعالى، فهو قادر على فعل الخير، وقادر على فعل الشر، وحتى يكون الحساب عدلاً فإن مغيبات العقل كلها محرمة تماماً مهما أخذت أى شكل من الأشكال، والذى يقدم عليها يحاسب لأنه قد عطل أداة الاختيار فيه وانطلق بلا وعى إلى أشياء حرمها الله.

واختيارات العقل هى التى تشقى الإنسان وتسعده فى الحياة، وهى التى تقوده إلى الجنة أو النار، فأنت بالغريزة لك انفعال واحد ورد واحد، أما بالعقل فأمامك بدائل كثيرة تختار منها ما تريد، فإذا ضرب كلباً مثلاً فإن الانفعال الغريزى لهذا الكلب هو أن يرد بأن يعض الإنسان ولا انفعال آخر، كلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه، والحمار أو الحصان مثلاً يرفس من يؤذيه، أى إن انفعاله له شىء واحد لا يتغير بينما الإنسان له عشرات البدائل من الانفعالات فإذا ضربك شخص فإنك تستطيع أن ترد الضربة

بمثلها، أو تردها بأشد منها، أو تردها بأقل منها، أو تصفح عمن ضربك، أو تحسن إليه، أو تكتفى بتوبيخه، هناك بدائل لا حدود لها موجودة عند الإنسان وحده، وما دامت هذه البدائل موجودة فلا بد أن هناك فى الإنسان شيئاً يجعله يختار، أو يميز بين البدائل بحيث يتخذ القرار، أما الذى ليس عنده سوى اختيار واحد فهو محتاج إلى فكر ليميز بين البدئل التى أمامه.

وهنا نأتى إلى معنى الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].

ولابد أن نعرف أن كلمة الإنسان حين تطلق من اللّه سبحانه وتعالى، يراد بها الإنسان على إطلاق خلقه بلا تمييز بين مؤمن وكافر، أى إن الإنسان على إطلاقه مخلوق فى كبد أى ضيق ومعاناة؛ لماذا؟ لأنك وأنت أمامك هذه البدائل كلها مطلوب منك أن تختار فى كل لحظة من لحظات حياتك ماذا تفعل؟ وكيف تتصرف؟ هل ترد الإساءة بالإساءة؟ أو تواجهها بالإحسان فيطمع فيك عدوك؟ وأنت فى ضيق مالى هل تستقيل من وظيفتك وتبدأ عملاً حرًا؟ وماذا يحدث لو أفلست؟ إذا لو قمت بهذا العمل كيف تتصرف فى الصفقة التى أمامك، إن بعتها فقد يرتفع سعرها فيضيع الربح الذى كنت تستطيع أن تكسبه، وإذا لم تقرر البيع فقد ينخفض السعر فتخسر، أين الخير وأين الشر فيما يحدث لك وفيما تختاره؟ هل اخترت الصواب أم الخطأ؟ لو اتخذت هذا القرار فما هو أثره على غدك ومستقبلك؟ أيأتى يوم تندم فيه على ما فعلت؟ وإذا لم تتخذ القرار أتكون قد ضيعت فرصة عمرك كما يقولون؟ وهل ستأتى فرصة غيرها؟

إذن.. فالإنسان إذا امتنع عن اتخاذ قرار فهو فى ضيق، لأنه يحس أنه ربما أخطأ وربما فاتته الفرصة، وإذا اتخذ القرار واختار أحد البدائل فهو فى ضيق وكبد لأنه يحس أنه ربما أخطأ فى قراره.. وإذا قال نعم.. فهو فى ضيق وكبد، لأنه يحس أنه كان يجب أن يقول: لا، وإذا قال لا، فهو فى تعب وكبد فربما كان الخير فى كلمة نعم، وهكذا لا يخرج من الضيق والمعاناة أبداً، إذا اتخذ قراراً أو لم يتخذ، وإذا قام بعمل أو امتنع عنه، إنه يعيش فى ضيق دائم.

والمخرج من هذا كله أن تتحد مرادات الإنسان، وما يريده فى الحياة مع مرادات منهج اللّه ولذلك فإن الإنسان المؤمن هو الذى يعيش فى راحة، فالإنسان المؤمن كل قدر اللّه بالنسبة له هو خير، والإنسان غير المؤمن كل قدر اللّه بالنسبة له يعتبره شرا.

والإنسان المؤمن إذا جاءه المال فهو خير، وإذا ذهب عنه المال فهو خير، فإذا جاءه المال كفاه حاجته، وإذا ذهب عنه فربما كان سيقوده إلى المعصية والهلاك فأبعده اللّه عنه، والإنسان غير المؤمن إذا جاءه المال فهو شر يخاف من الحسد فينكره، ومن السرقة فيظل قلقاً عليه ليل نهار، ومن أن يضيع هذا المال فيحاسب نفسه على كل قرش ينفقه، وإذا جاءته وجوه إنفاقه فهو يخشى أن تزيل وجوه الإنفاق هذه نعمة المال عنه وتفنيه، وهو

يحس أن كل من حوله يطمع فى ماله فتضيع ثقته فى الناس ويشعر أنهم جميعاً خونة وطماعون، وهكذا فإن المال أتاه بالشقاء فإذا ذهب المال عنه فهو شر، لأنه ينظر إلى النعم التى أنعم الله بها على غيره من خلقه، وتمتلئ نفسه مرارة وحسرة، ويحس بالضيق فى كل دقيقة من حياته، ويشعر بالحرمان و يملأ نفسه السخط لأنه يريد ولا يستطيع أن يحصل على ما يريد.

والإنسان المؤمن إذا كان صحيحاً معافى، يعرف قيمة الصحة ويشكر الله عليها، وإذا مرض يعلم أن هذا ابتلاء من الله واختبار للإيمان ويرضى ليحصل على الثواب وينجح فى الاختبار، والإنسان غير المؤمن يعتبر الصحة أمراً مفروضاً، فإذا أعطاه الله الصحة انطلق إلى المعاصى التى تذهبها عنه، ويرهق جسده بالسفر والخمر والشهوات وفاخر الطعام يحشره حشراً، فإذا مرض نتيجة هذا السلوك سخط وضاق ولعن الدنيا ومن فيها وظل متبرماً بالحياة فهو فى ضيق دائماً.

وهكذا نرى أن التكليف أو الأمانة التى حملها آدم ليست مهمة سهلة ولا هينة بل هى مهمة صعبة، واختبار دقيق بين مغريات الحياة ومطلوبات الإيمان، وهى امتحان لا ينتهى فى كل دقيقة كما سنبين ذلك فى الفصول القادمة، ولذلك لعظم هذه المهمة كان أمر الله لملائكته بالسجود لآدم.

والله سبحانه وتعالى قد أعد للإنسان فى الآخرة جنات، ونعيماً عظيماً وتكريماً على قدرات الله سبحانه وتعالى، والوعود بهذا التنعيم والتكريم من الله سبحانه وتعالى لابد أن يكرم ساعة خلقه بأن يسجد الملائكة له، وقد يكون ذلك تفضيلا من الله سبحانه وتعالى وتكريما للإنسان، والله يكرم من يشاء، ويرفع درجات من يشاء، ولذلك أراد تكريم الذرية المؤمنة التى خُلقت فى ظهر آدم ساعة خلقه، كل هذا تفسير لأمر السجود وإن كان التفسير الأكبر هو التفسير الإيمانى فى أن الله سبحانه وتعالى يُعبد لذاته، وأن الأشياء تأخذ تفضيلها ورفعة شأنها وكمال وجودها من الله، ولا شىء له فضل ولا قدسية فى ذاته وهذه حقيقة لابد أن نفهمها لأنها هى الحقيقة الإيمانية الكبرى، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فضل بعض الأماكن على بعض، وبعض الأزمنة على بعض، وبعض خلقه على بعض، ولكن هذا التفضيل ليس فى ذاتية هذه الأشياء كلها، ولكن اختيار الله لها فليس فى هذه الدنيا كلها شىء مفضل لذاته، ولعل هذا الاختبار الإيمانى قد مر به المسلمون عند تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وبعض الناس يتساءل عن حكمة تغيير القبلة وقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الحكمة فبعضهم قال: إن ذلك تم حتى نخالف اليهود والنصارى، وبعضهم قال: إن ذلك تم لإرضاء العرب الذين نزل الإسلام عليهم أولاً حتى يكون بيت الله وقبلة المسلمين فى الجزيرة العربية، وبعضهم قال غير ذلك.

ولكن الحكمة فى هذا كله تأتى من أن الله يريدنا أن نفهم أن عبادته يجب ألا تشرك

معه فيها شيئاً مهما كان هذا الشيء، بل العبادة له وحده، والطاعة له وحده، وأن اختياره سبحانه وتعالى للأشياء هو الذى يعطيها قدسيتها فى نفوسنا، فإذا قال الله اتجهوا إلى بيت المقدس للصلاة اتجهنا إلى بيت المقدس، لا لأنه مكان رسالات سابقة ولا لأن هذا المكان شهد الأنبياء السابقين؛ ولكن لأن الله هو الذى أمرنا أن نتجه إليه، فإذا جاء أمر الله فى أن نتجه إلى الكعبة، فإننا نتجه إلى الكعبة تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى أن نتجه إليها، ولا نعترض أو نقول إن بيت المقدس الذى شهد الرسالات السابقة هو أفضل وأقدس، ذلك أن بيت المقدس أخذ قدسيته من أمر الله لنا بالاتجاه إليه فى أول الإسلام، والكعبة المشرفة أخذت قدسيتها من أمر الله لنا بتحويل القبلة والاتجاه إليها، وهكذا نعرف أن الألوهية والطاعة والتقديس لله وحده ولا ندخل معه إلا أمر الآمر، وهو الله بأن نفعل ذلك لأن الله يعبد لذاته.

ولذلك فإن بعض الناس الذين يعتقدون أن هناك شيئاً مقدساً لذاته بعيدا عن أمر الله؛ إنما هم قد يقعون فى خطأ جسيم، ذلك أن مصدر العبادة كلها بذاتيتها وكل أمورها ونواهيها هو الله، فإذا قال سبحانه وتعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول اكتسب رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الطاعة بأمر الله فأصبحت واجبة، وإذا طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج البيت اكتسب البيت حق الحج بأمر الله، ولو طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج إلى أى مكان آخر لقمنا بذلك امتثالا لأمر الله، ولذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هذه الحقيقة فى قوله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥].

نجد أنه فى الآيات الأولى يقول الله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

ومعنى ذلك أن الله أنبأنا بما سيقولونه قبل أن يقولوه، وهذا واضح فى استخدام حرف «السين» فى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ﴾ ولو أنهم قد قالوا فعلا ما استخدم الله سبحانه وتعالى حرف السين، وهذا إعجاز من القرآن الكريم فلو تنبه الكفار وغير المسلمين إلى هذه الآية التى نزلت قبل أن يقولوا شيئاً لامتنعوا عن القول، وحينئذ كان الجدل يثور حول القرآن الكريم بأن يقول هؤلاء الكفار وغير المسلمين إن القرآن قد قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

ولكن أحداً لم يقل شيئاً، ولكن الله بقدرته جعلهم لا يتنبهون لهذا، ويتساءلون ما

ولاهم عن قبلتهم؟ وبذلك يكونون وهم الكفار مثبتين للإيمان، مؤيدين لصدق القرآن لأن القرآن قال عنهم: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾.

وقد جاءوا وقالوا فعلاً تصديقاً لقول الله، بل إن الله وصفهم بالسفهاء، وقالوا لينطبق عليهم هذا الوصف، وهكذا يستخدم الله الكفار لتثبيت الإيمان ودليلاً على صدق القرآن، وليرينا أنهم سفهاء.

ثم يقول الله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ويقول في آية أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾.

أي إن الله سبحانه وتعالى يرد على هؤلاء السفهاء ويقول إنه سبحانه لا يحده زمان ولا مكان، ففي أي مكان تتجه إليه فثم وجه الله، وبذلك ينفي أن تكون حجة التغيير أن وجه الله موجود هنا، وليس موجوداً هناك، أو أنه في المشرق وليس في المغرب، أو العكس. فالله في كل مكان، إذن.. فحكمة التغيير هنا لا تتعلق بذات الله ولا بوجهه ولا بمكان معين بالذات، ولكنها كما قال الله سبحانه و تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهنا يعطينا الله السبب في التغيير، وهو اختبار نعمة الإيمان في النفس البشرية في أن الله يُعبد لذاته، فتغيير القبلة هو اختبار إيماني لمن يتبعون الرسول الذي يُوحى إليه من الله، بحيث إذا أبلغهم الرسول بوحي الله اتبعوه إيمانا منهم بأن الله يُعبد لذاته، فأقوياء الإيمان سينفذون الأمر من هذا المنطلق الإيماني، وضعاف الإيمان سيحاولون المجادلة بقولهم: إن المسجد الأقصى له قدسيته لذاته فهو مكان الرسالات والأنبياء، فكيف نتركه ونولي وجوهنا إلى البيت الحرام.

وهكذا نرى أن تغيير القبلة هز نفوس ضعاف الإيمان ووضع أسئلة حائرة في عقولهم، وكان شيئاً كبيراً بالنسبة لهم أن يتحولوا من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام، بينما المؤمنون لم يضعوا لذلك أي تساؤل في نفوسهم وقلوبهم، لأنهم يعلمون يقينا أنه لا شيء مقدس لذاته وفي هذا يقول الله: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾.

بعد أن بينا هذا المنطلق الإيماني، نعود إلى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، الملائكة يعبدون الله ويفعلون ما يؤمرون، وفي سجودهم لآدم إنما فعلوا ذلك لأمر الله لهم بالسجود وليس لقدسية ذاتية في آدم، أي إنهم سجدوا لأن الله هو الذي أمر بالسجود، والله كما قلت يُعبد لذاته ولم يسجدوا لأن آدم له قدسية ذاتية من داخله تدفع الملائكة للسجود له. لو أن الله لم يأمرهم بذلك، وفي هذا رد على الذين يقولون كيف أن الملائكة سجدوا لآدم مع أن السجود لغير الله مرفوض، نقول لهم: أنهم سجدوا لأمر الله

فى السجود وليس لذاتية آدم نفسه، وهنا يقول تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠].

أى إنه لم يخرج عن هذا الأمر الذى أمر به الله أى ملك من الملائكة، وإنما الذى خرج عن هذا الأمر هو إبليس

وما حدث بين الله وملائكته عندما أبلغهم الله سبحانه وتعالى أنه سيجعل آدم خليفته فى الأرض، أنبأ به الله فى سورة البقرة، وتساؤل الملائكة عن الإفساد الذى سيحدث فى الأرض ووقف الشيطان، ورد الأمر على الآمر وأعلن رفضه لتنفيذ أمر الله بالسجود.

وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى كيف كرم الله آدم عند بداية الخلق، وأن آدم قد قَبِلَ حمل الأمانة، وهى حرية الاختيار بين البدائل، وهذا امتحان رهيب للإيمان، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد ميز آدم وذريته بالعقل، وهو أداة الاختيار ورفع التكليف والحساب لمن لم يكتمل عقله كالطفل، أو من يفقد عقله كالمجنون، وكيف أن إعطاء آدم حرية الاختيار قد أوجد نوعين من الحياة: نوعاً يكابد فيه ويقاسى الإنسان غير المؤمن، ونوعاً للحياة الطيبة للإنسان المؤمن، أما تساؤل الملائكة عن إفساد آدم فى الأرض، وكيف علموا ذلك، وكيف علَّم الله آدم الأسماء فسنفصله فيما سيأتى.

خلق الله آدم وكرمه وأعده لمهمته فى الحياة، ثم أخبر الله الملائكة بمهمة آدم فى الأرض، وقال سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو لماذا أخبر الله الملائكة بأنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض؟ وما الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يخبر الملائكة بذلك؟ وهل هذا الإخبار من الله يتنافى مع طلاقة قدرة الله فى كونه؛ يفعل ما يشاء عندما يريد وهو العزيز الحكيم: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

لقد توقف عدد كبير من العلماء عند هذا السؤال، وظهرت تفاسير كثيرة لن نتعرض لها، ولكن سبب الإخبار هو إعلام الملائكة بمهمتهم التى سيقومون بها بالنسبة لآدم وذريته، ذلك أن من بين هؤلاء الملائكة من سيكونون ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ أى يكتبون كل ما سيفعله آدم وذريته فى الأرض، يكتبون الحسنات، ويكتبون السيئات، ويكتبون أداء الإنسان للصلوات وطاعته لله، كما يكتبون المعاصى التى يرتكبها الإنسان، ومنهم الحفظة الذين يحفظون الرسل من كل سوء، وهؤلاء سيكون لهم شأن مع الرسل من ذرية آدم الذين سيبعثهم ليذكروا

ويبينوا منهجه للناس، ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح فى الأرحام والملائكة الموكلون بقبض الأرواح وهم ملائكة الموت، ومنهم الملائكة الموكلون بالأرزاق، إلى آخر ما يوكل الله ملائكته لتنفيذه فى الكون مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الانفطار].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝﴾ [آل عمران].

وهكذا نعرف من آيات القرآن الكريم أن الله جعل للملائكة مهام كثيرة مع الإنسان فى الأرض، وأن إبلاغ الله سبحانه وتعالى للملائكة بمهمة آدم كان إعلاماً لهم بالمهام التى سيقومون بها فى الحياة، ورزق وتثبيت المؤمنين فى القتال، وكل الشؤون التى سيكلفهم الله بها بالنسبة للرسالات فى الأرض إلى آخر ما سيكلفهم الله به، ولذلك كان إعلامهم بأن الله قد اختار آدم ليكون خليفته فى الأرض.

ما معنى اختيار الله لآدم كخليفة؟ وما هى الخلافة التى أعطيت لآدم؟ معناها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل ما فى الأرض والسماء، وسخره لخدمة الإنسان وجعله يعمل من أجله، ولنعرض عرضا سريعاً لما سخره الله للإنسان فى الأرض ليخدمه؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [إبراهيم].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان ما فى الأرض وما فى السماوات، وجعل له الولاية عليها بأن تفعل له وأن تنفعل به، وهكذا فإن هذا التسخير هو خلافة الإنسان لله فى كونه، بل إن جسد الإنسان نفسه مسخر له بأمر الله، ولكن يوم القيامة ينتهى هذا

التسخير. واستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت].

وهكذا نرى أن السمع، والبصر، والجلود التى هى مسخرة فى الإنسان تفعل له فى حياته ما يريد، تأتى يوم القيامة لتكون شهيدا عليه فيما فعله من معاصٍ، لأنها فى الحياة الدنيا مسخرة بأمر الله لكى تطيع الإنسان، فاليد تمتد لتسرق وهى تلعن صاحبها ولكنها لا تستطيع أن تعصى أمره؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها مسخرة له تفعل له ما يريد، والعين تزنى وهى تلعن صاحبها، ولكنها لا تستطيع أن تخالفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى سخرها له، وكذلك الجلود، والسمع، وكل ما فى الجسد الله خلقه خاضعاً لأمره ثم استخلف الإنسان فيه ليعمل ما يأمره به الإنسان، وكذلك الكون كله، البحار تلعن الكافرين، ولكنها تعطيهم اللؤلؤ، والأسماك، والبخار الذى يكون السحاب، وتحملهم إلى حيث يريدون بدون أن تستطيع ألا تخدم الإنسان الذى جعلها الله مسخرة له، وجعله خليفة فى هذا التسخير، وكذلك الأرض، والجبال، والشمس، والقمر كل ذلك يعمل بأمر الله، ولكنه يخدم الإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض، ولا يستطيع أن يعصى أو أن يتوقف عن خدمة الإنسان مؤمناً كان أو كافراً.

والله خلق هذا الكون كله، وجعل الإنسان خليفة له فيه، كل شىء فى هذا الكون فى السماوات والأرض يخدم الإنسان، وكلما تقدم العلم اكتشفنا ما لا نعرفه عن كيف يخدم هذا الكون الإنسان الذى جعله الله سبحانه وتعالى سيداً له بطريق الخلافة، بحيث عندما تنتهى هذه الخلافة يوم القيامة تنتهى سيادة الإنسان على الأرض وخلافته فيها، ويصبح الأمر لله من دون أن يستخلف أحدا فيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وتمضى الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى أذهان الكثيرين كيف عَلِمَ الملائكة أن الإنسان سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء؟ لابد أنه كانت هناك تجربة لخلق آخر لله أعطاهم الله سبحانه وتعالى حق الاختيار فى أن يكونوا طائعين أو يكونوا عاصين، فأفسدوا فى الأرض، وعصوا بعد أن تعهدوا بأنهم سيصلحون، ويطيقون منهج الله فى الأرض، من هم هؤلاء الخلق؟ فقد يكونون هم الجن لأن لهم الاختيار؛ ولأن منهم الصالحين ومنهم العاصين، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ [الجن].

ثم تقول السورة نفسها: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ ﴾ [الجن].

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ ﴾ [الجن].

وقول الله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١]. أى: الإنس و الجن.

وهكذا نعرف يقينا من القرآن الكريم أن الجن سيحاسب يوم القيامة، وأن الرسالات السماوية قد نزلت إلى الإنس والجن مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [الأحقاف].

فالجن منهم الصالحون، ومنهم الظالمون، ولم يخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أنه خلق شيئاً مختاراً فى سلوكه، مختاراً فى الإيمان والمعصية إلا الجن والإنس، وقد يكون هناك خلق آخر لم يخبرنا به الله.

إذن.. فقول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾.

قد يكون منصبًا على الجان الذين خلقهم الله مختارين من قبل، ولكن ما هو الدليل على أن خلق الجان قد سبق خلق الإنسان بحيث رأى الملائكة هذه التجربة فيمن خلقهم الله غير مسخرين، وأعطاهم حرية الاختيار فقاسوا عليها تجربة الإنسان الذى أعطى الحق نفسه وهو حق الاختيار؟ الدليل على ذلك يأتى من القرآن الكريم؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن؛ أنه خلق الجان قبل خلق الإنسان، ويقول المفسرون: إن الجان قد أفسدوا فى الأرض.

وعلى أية حال فإن الثابت يقينا أن الله قد خلق الجان قبل أن يخلق الإنسان، وأنه قد أعطى الجان حرية الاختيار و لم يجعله مسخراً، وقد يكون الله سبحانه وتعالى خلق خلقاً آخر قبل الجان لم يخبرنا به، وعلى ذلك فكون الإنسان ليس أول مخلوقات الله المخيرين، يفتح الباب لاحتمال أن هناك خلقا أفسدوا فى الأرض، وأن الملائكة شهدوا التجربة وقاسوا عليها.

ثم قالت الملائكة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾.

أى: إن الملائكة يقولون: يا رب أنت قادر على أن تخلق خلقاً مسخرين يسبحون بحمدك بدلاً من خلق مخيرين يفسدون فى الأرض ويكفرون بالله، وهذا القول قد قاله الملائكة فى أنفسهم، ولم يجهروا به كما سيأتى بيان ذلك، وهذا يدل على أن الملائكة لم

تفهم مرادات الله من خلق الإنسان ذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء مسخرا لعبادته وتسبيحه، ولكن الله يريد خلقاً يأتيه طواعية واختيارا، يأتيه عن حب ورغبة لا عن قهر ورهبة، مخلوق قادر على أن يفعل المعصية، ولكن لا يفعلها حبًا فى الله، مخلوقٌ قادر على ألا يقوم بالطاعات والعبادات، ولكنه يقوم بالطاعات والعبادات حبًا فى الله، مخلوق قادر زينت له الدنيا وزينت له الشهوات فأصبحت محببة إلى نفسه ولكنه يتركها لأن حبه لله أكبر، هذه هى مرادات الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وتحميله الأمانة فى أنه يأتى لطاعة الله وحب الله، وهو قادر على ألا يأتى، ولذلك أعد له من النعيم فى الآخرة مالم يعده لأحد من خلقه جزاء له على طاعته، وأعد له من العذاب مالم يعده لأحد من خلقه عقابا له على معصيته.

هذه هى فلسفة خلق الإنسان، و لذلك فإن الله إذا شاء يستطيع أن يخلق كما يشاء عبادا مقهورين له، ولكنه يريد عبادا يأتونه عن حب ورغبة، ولذلك أسقط الله الحساب عن كل إكراه فى العبادة وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣].

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أى: إن الله سبحانه وتعالى هو العليم بمراداته، وأن الملائكة حينما ظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقاً يسبح بحمده مقهورين، لم يكونوا يعلمون علم الله سبحانه وتعالى فى أنه يريد خلقاً يأتونه طائعين مختارين، وعدم علم الملائكة من مرادات الله هو من تمام علم الله، لأن الله سبحانه وتعالى محيط بعلم الملائكة، والملائكة لا يحيطون بعلم الله.

ثم تمضى السورة الكريمة إلى قول الحق: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وهذا إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم؛ ذلك أن الله قد جعل بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء، فكما علم الله آدم الأسماء؛ فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل، إلا إذا تعلم الأسماء. خذ الطفل الصغير أى طفل فى أى مكان فى العالم، كيف يبدأ تعليمه؟ إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه الأسماء أولاً، فيقال له: هذا كوب، وهذا جبل، وهذا رجل، وهذا بيت، وهذا بحر، وهذا شارع، وهذه قطة، وهذه امرأة... إلخ. وبعد أن يتعلم الطفل الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء، وحتى الطفل الأمى الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك

كيف يمضى فى حياته العادية وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علماً.

وهكذا أنبأنا القرآن الكريم بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على العلم بداية بالأسماء، بل وأكثر من ذلك بالاستعانة بالصورة كما سيأتى ذلك.

إذن.. كون البشرية كلها حتى يومنا هذا تبدأ التعليم بالأسماء دليل على إعجاز القرآن الكريم الذى حدد لنا طريقة البداية فى التعليم.

علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، وعرف آدم الأسماء، ثم ماذا حدث بعد ذلك. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣١].

أى إن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة، وطبعا لم يعرض الله الأسماء على الملائكة، وإنما عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

وقول الله سبحانه و تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، دليل على أنه لم يعرض الأسماء على الملائكة، ولكنه عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء، ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء.

وهنا لابد أن نتوقف عند قول الله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الملائكة أنهم لم يكونوا صادقين فى فهمهم لمرادات الله من خلق الإنسان، ومن عدم فهمهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخلق من يعبده عن اختيار وحب ورغبة، لا عن قهر ورهبة.

وهنا اعترف الملائكة بعجزهم أمام علم الله سبحانه وتعالى، واعترفوا بأنهم لم يفهموا مرادات الله حين قال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٞ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠].

فقالوا: سبحانك؛ أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك وبمراداتك أحد، وسبحان الله وليس كمثله شىء هى ما نلجأ إليه عندما ننسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى حينئذ يكون الفعل خارجا عن كل قيود وتصورات البشر، ويكون فى كل معجزاته وخرقه لنواميس الكون إنما هو مناسب لقدرة الله سبحانه وتعالى التى خلقت هذه النواميس والقوانين، والتى تستطيع أن تخرقها متى شاءت وأن تفعل من المعجزات ما تشاء، وقالت الملائكة معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: ٣٢].

وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلا ما أتاحه الله لهم من العلم، فالعلم كله يأتى من الله، والله يكشف من علمه وقدراته فى الكون ما يشاء لمن يشاء، وكل كشف علمى فى

الكون قد جعل الله له ميلاداً أو موعداً يكشفه فيه للبشر، فإن صادف مولد هذا العلم باحثاً فيه كشفه الله له، وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصدفة.

والمصادفة التى ندعيها فى الكون؛ هى الموعد أو الميلاد الذى حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون فى الكون يجهله الناس، عسى أن يدركوا بهذا القانون الذى كان يعمل فى خدمة الإنسان، ولم يكن أحد يدرى عنه شيئاً عسى أن يكتشفوا بهذا القانون إعجازا من إعجازات الله فى كونه فيزيدهم هذا الإعجاز فهماً وإدراكاً لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى.

ولكن الذى يحدث للأسف الشديد، أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه، وينسب الكشف لنفسه، وينسى قدرات الله، وكل شىء فى هذا الكون ابتداء وانتهاء هو من الله، فحبةُ القمح التى نأكلها الآن أتت من زرعة القمح فى الموسم الماضى، وزرعة القمح فى الموسم الماضى أتت من زرعة القمح فى الموسم الذى قبله، وهكذا تسلسل الأشياء حتى نصل إلى حبة القمح الأولى التى لم تأت من موسم سبق، من أين أتت هذه الحبة؟ من الله سبحانه وتعالى، والشجرة التى تراها أمامك جئنا ببذرتها من شجرة سابقة، والسابقة جئنا ببذرتها من شجرة أسبق، وهكذا نمضى حتى نصل إلى الشجرة الأولى، من الذى أنبتها؟ ما دامت لم تأت من شجرة سابقة فلابد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدها.

والشىء نفسه ينطبق على الإنسان والحيوان، فكل حيوان موجود هو مولود من حيوان سبق، والحيوان الأول لابد أن يكون قد خلقه الله، وإذا طبقنا النظرية نفسها على الإنسان، نسأل إنسانا من أين جئت؟ فيقول من زواج أبى وأمى، هذا إذا أخذنا بظاهر الأسباب، والأب والأم جاءا من أبوين وأمين سابقين، وهكذا نمضى حتى نصل فى النهاية إلى أنه لابد أن يكون هناك ذكر وأنثى جاءا من خلق مباشر، وهذا الخلق المباشر هو الذى أوجده الله بخلق آدم وحواء، والعجيب أن العلماء الذين يتناولون هذه المسألة قد دخلوا فى متاهات كثيرة، ولعل من أكثر هذه المتاهات شيوعا وأقربها إلى العقول، الجدل العنيف الذى يدور حول هل وجدت البيضة أولاً أم الفرخة؟ وفى هذه تتصارع النظريات وتختلف الآراء، وكل يحاول أن يدلل على صدق تخمينه، وكل هذه النظريات خاطئة تدل على جهل بشرى بحقيقة الخلق، والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى، فإذا وجد الذكر وحده بدون الأنثى فُنِى الخلقُ بعد فترة قصيرة، وإذا وجدت الأنثى وحدها بدون الذكر فُنِى الخلق بعد فترة قصيرة، إذن.. لابد من ذكر وأنثى ليتم التكاثر وتتم استمرارية الخلق.

ولقد تنبهت البشرية فى الفترة الأخيرة إلى هذا الإعجاز الذى ذكره القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ولذلك فإن النظريات الحديثة للقضاء على الآفات الزراعية قد تنبهت إلى حقيقة أن الاستمرارية جعلها الله سبحانه وتعالى فى الذكر والأنثى معاً،

ووصلت إلى اختراعات بالأشعة وغيرها تقوم بها بتعقيم الذكور فتنتهى الآفة تماماً، أو تقوم على أساس القضاء على إناث الحشرات فتنتهى الآفة تماماً ولا تعود، ولكن البشرية كانت تعتمد منذ أعوام قليلة على إبادة الحشرات من دون تمييز بين ذكر وأنثى، ولذلك لو أفلتت من هذه الإبادة أنثى واحدة وذكر واحد، لعادت الحشرة إلى تكاثرها من جديد وبدأت تهدد بإتلاف الزرع والنباتات مرة أخرى، ومهما كانت المبيدات التى تستخدم فى هذا المجال قوية فإنه فى معظم الأحيان يفلت من الإبادة عدد ولو قليلاً جدا من الذكور والإناث لتعود الآفة الحشرية مرة أخرى أقوى مما كانت.

لذلك فإن السؤال عن أيهما وجد أولاً البيضة أو الفرخة؟ سؤال ساذج، لأن البيضة لو لم توجد ملقحة لا يخرج منها الكتكوت، ذلك لو أتينا بعدد كبير من الفراخ التى تبيض ولم يتم تلقيح هذا البيض بواسطة الذكور فإنه لا ينتج عنه شىء ولا يخرج منه كتكوت واحد مهما بلغ عدد هذا البيض، ولكن إذا وجد الديك والفرخة معاً أمكن أن تنشأ أجيال من الدجاج بعد ذلك، وهذا ينطبق على النبات أيضاً فإذا لم توجد الذكورة والأنوثة فى النبات لا يتكاثر ولا يعطى ثماره، ولذلك فإن الإنسان يكون حريصاً على تلقيح أنثى النبات بالذكر كما يحدث فى النخل مثلاً، وأحيانا تكون الذكورة والأنوثة موجودة فى زهرة واحدة أو فى شجرة واحدة، فيتم التلقيح ذاتيًا وأحياناً تحمل الرياح عوامل الذكورة من زهرة إلى زهرة أخرى بل إنه ثبت أخيرا من الأبحاث العلمية أن هناك ذكورة وأنوثة فى السحاب، ولقد استُخدِمتْ فى الحروب الأخيرة وخصوصا فى حرب فيتنام حيث كانت الطائرة تقوم برش ذرات تشبه ذرات ذكورة السحاب فينزل المطر من السحابة، وقال بعض الجهلاء إن هذا اكتشاف لأحد الغيبيات الخمسة التى اختص الله بها نفسه فى قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾، ونسوا أن عملية المطر تبدأ من البخر من سطح البحر بواسطة أشعة الشمس، ومن كل المياه المعرضة للجو، وأن هذه تتصاعد فى طبقات الجو العليا لتكون السحاب الذى يسوقه الله سبحانه وتعالى بواسطة الرياح إلى الأماكن التى قدر الله أن ينزل فيها المطر، وأن هذه العملية تتم بدون أن يحس بها إنسان؛ وأنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقوم بعملية البخر هذه إلا الله سبحانه وتعالى؛ وأنه لا يوجد قوة فى العالم تستطيع أن تأخذ سحاباً وتنقله من مكان إلى مكان آخر بواسطة وسائل صناعية.

وتمضى الآية الكريمة بعد أن قالت الملائكة: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

أى إن الله تعالى هو العليم فوق كل عليم، والحكيم الذى لا يدرك خلقه حكمته فى كثير من الأمور، وهنا قال الله لآدم: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣].

أى إن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء المخلوقات التى لا يعرفون أسماءهم والتى عجزوا أن يذكروا أسماءهم أمام الله، وهنا نتوقف قليلاً لنقول:

كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء؟ لابد أنه أنبأهم بها بلغة يفهمونها، فما دامت هذه أسماء فهى تنطق؛ أى: تُقال. فمن أين عرف آدم اللغة التى يتحدث بها، واللغة هى وليدة البيئة أى إنها لا تورث ولا تكون فى الإنسان بالطبيعة بل لابد للإنسان أن يسمع حتى يتكلم، ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين وُلِدُوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد، ولكى ندلل على ما نقول فإننا إذا أخذنا طفلاً عربيًا ساعة مولده وذهبنا به إلى بلاد تتكلم اللغة الإنجليزية وتركناه هناك؛ فإنه ينشأ يتكلم اللغة الإنجليزية ولا يعرف حرفاً واحداً من اللغة العربية رغم أن أصله أباً عن جد عربى، وإذا فعلنا عكس ذلك وأخذنا طفلاً إنجليزيًا لحظة مولده وتركناه فى بلد يتحدث العربية فإنه ينشأ يتحدث العربية ولا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية التى هى لغة آبائه وأجداده، فاللغة هى وليدة البيئة وليست بالمولد، ولا بلغة الأب أو الأم، والذى يتكلم لابد أن يسمع أولاً قبل أن ينطق، وآدم قد نطق بأسماء هذه المخلوقات فلابد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق، فمن الذى علم آدم الكلام؟ إنه الله فلابد أن آدم لكى يستطيع أن يتكلم قد سمع من الله، وهكذا فإن هذا إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم يدل على أن الله هو الذى علم الإنسان الكلام، وآدم قد تعلم اللغة من خالقه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

أى إن آدم عندما عجز الملائكة عن أن يقولوا أسماء المخلوقات التى عرضها الله عليهم، طلب الله من آدم أن ينطق بهذه الأسماء فنطق بها، وأنبأ بأسماء هذه المخلوقات، وحينئذٍ وقف الملائكة وهم يرون هذا الإعجاز من الخالق فقال لهم الله سبحانه وتعالى: ألم أنبئكم أنى أعلم الغيب وأعرف ما سيقع فى السماوات والأرض، ولا يغيب عنى شىء، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون.

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، إذ إن هذا يبين لنا أن الملائكة لم يجهروا بالقول لله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

ولكنهم قالوا ذلك فى أنفسهم بدون الجهر، وعلمه الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم ما نخفى وما نعلن، وعَلِمَهُ رغم كتمان الملائكة عن الجهر به، فرد عليهم بتجربة عملية بأن علم آدم الأسماء ووقف الملائكة عاجزين عن معرفة هذه الأسماء، وهنا قال الله سبحانه وتعالى للملائكة؛ إنه رد على ما قالوه فى أنفسهم ولم يجهروا به وأنه لا شىء يغيب عن علم الله.

هنا يريد الله أن يعلمنا عدة حقائق هامة.

أولاً: أنه لا أحد يستطيع أن يحيط بمرادات الله حتى ولا الملائكة المقربون؛ ذلك

أن الله سبحانه وتعالى هو وحده العليم، ولا أحد من خلقه يستطيع أن يصل إلا إلى ما يريده الله أن يصل إليه.. وأن لكل مخلوق مقامه الذى لا يتعداه.

ثانياً: أن الله سبحانه وتعالى حين جعل الإنسان خليفة له فى الأرض سخر له كل شىء تسخيراً دنيويا، أى إن كل شىء مسخر لخدمة الإنسان بأمر الله. حتى جسد الإنسان وجوارحه تأتى يوم القيامة تشهد عليه لأنها مسخرة له فى الحياة الدنيا فقط، فهى تنفذ له الخير والشر، وتتبع إرادته بأمر الله.

ثالثاً: أن الله حين خلق الإنسان يريد خلقا مختاراً فى أن يفعل، أو لا يفعل حتى يُقبل هذا الخلق على العبادة عن اختيار، وحب.

رابعاً: أن كل شىء فى هذا الكون أصله من الله ونهايته إلى الله، وأن الثمرة الأولى والشجرة الأولى والإنسان الأول وكل خلق أول، هو خلق مباشر من الله سبحانه وتعالى لا يخضع للأسباب التى يتم بها ما يحدث فى الدنيا.

خامساً: أن اللغة علمها الله لمخلوقاته، لأن اللغة هى ابنة السماع، ولذلك فلابد أن آدم وهو أول من خُلق يكون قد علمه الله اللغة حتى يستطيع أن يتحدث بها، ثم أخذها أبناؤه وأحفادهم بالسماع، وتعددت اللغات حسب البيئات المختلفة.

ونأتى بعد ذلك إلى موقف الشيطان من خلق الإنسان، وما هى معصية إبليس وكيف حدثت.

أثارت معصية إبليس جدلاً كثيرا مازال يدور حتى الآن، والجدل هنا يدور حول قشور، وظروف، وملابسات لا تمس جوهر المعصية التى قام بها إبليس، وإنما تمس جوانب العلم فيما لا يفيد، ولكن الجدل والتساؤلات تدور دائماً حولها، وكأننا لو لم نعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث: لكان لذلك أثر على جوهر ما حدث فعلاً، عصى أمر الله فى السجود لآدم؛ ثم زاد على ذلك بأن رد الأمر على الله، فقال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، وكأن الله سبحانه وتعالى جَلّ وتنزه محتاج لأحد مخلوقاته ليقول له، من هو الأحسن والأفضل، هذا هو جوهر المعصية.

ولكن التساؤل يدور حول أشياء هامشية، إن أمر السجود صدر للملائكة ولم يصدر لإبليس الذى كان من الجن؛ فكيف يحاسبه الله على عدم السجود، وهل كان إبليس يقف مع الملائكة وقت صدور الأمر؟ بينما هو ليس منهم، وهل كان إبليس فى الجنة وكيف يدخلها؟ وإذا كانت الغواية من الله لإبليس هى التى سببت المعصية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

فكيف يكون الحساب مع أن الله هو الذى أغوى، ولماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لإبليس، إلى آخر ما نسمعه من أسئلة تدور بين الناس حول هذا الموضوع، محاولة أن

تجد له جواباً، أو محاولة من وراء ستار لطعن الدين بإيجاد أسئلة غيبية قد تتعذر الإجابة عنها.

ولذلك فإنني رغم إيماني بأن هذه الأسئلة جانبية سأحاول أن أجيب عنها، كلها لا بالنسبة لأهميتها، ولكن حتى لا تستخدم في محاولة للتشكيك في دين الله، وسأستخدم الأدلة من القرآن قدر ما يهديني الله إلى ذلك.

تبدأ القصة عند أمر الله سبحانه وتعالى للملائكة بالسجود ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ [الحجر].

وهكذا عندما خلق الله آدم قال للملائكة إني خالق بشراً فإذا سويته، أي جعلته على الهيئة التي سيكون عليها، ثم بعد ذلك وهبته الحياة بالتقاء الروح والجسد، فنفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس.

وهنا تأتي وقفتنا الأولى، إن الخطاب هنا للملائكة، وإبليس من الجن، أي إن الله سبحانه وتعالى لم يوجه الخطاب إليه، فلماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾، نقول: إن الأمر يصدر إلى الأعلى ويكون الأدنى منه مطالبا بأن ينفذ هذا الأمر بالتبعية، فإذا قلنا مثلا إن الوزير لابد أن يكون في مكتبه في الساعة التاسعة صباحاً، انصبَّ هذا الأمر على من هم أدنى منه بدون أن نذكرهم، فما دام الوزير سيأتي إلى مكتبه في التاسعة صباحا؛ فإنه من باب أولى أن يكون وكلاء الوزارة ومديرو العموم وغيرهم في مكاتبهم قبل ذلك الموعد، أو على الأقل في مثل هذا الموعد؛ فالأمر انصب عليهم بدون ذكرهم بالاسم، وإذا قلنا إن رئيس الدولة سيكون في موقع ما الساعة الثامنة صباحاً فمن باب أولى أن يكون كل المسؤولين عن هذا الموقع في أماكنهم قبل الثامنة صباحاً.

إذن.. فالأمر إلى الأعلى يشمل الأدنى بدون أن يذكر بالاسم، فإذا كان الأمر قد صدر إلى الملائكة، وهم أعلى في المرتبة عند الله من الجن، فمن باب أولى أن يشمل الأمر الجن وغيره من المخلوقات الذين هم أدنى من الملائكة، ولو لم يذكروا ولو لم يحددوا بصفاتهم، ومن هنا فإن الأمر حين يصدر إلى الملائكة قد صدر إليهم وإلى من هم أدنى منهم في الخلق ولو لم يذكروا بالاسم، وهكذا القول بأن الأمر لم يصدر لإبليس بالسجود مردود عليه بأن أمر السجود يشمله، ما دام قد صدر للملائكة الذين هم أعلى منه، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣١].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٢].

أي إن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين من الملائكة وغيرهم، أي أبى أن يكون مع كل من سجد لأمر الله، ولقد حسم الله سبحانه وتعالى هذه النقطة أنه كان في علمه أن

هناك من سيأتون ويجادلون بالباطل ويقولون إن الأمر صدر للملائكة ولم يصدر للجن فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢].

ومعنى فسق: أنه عصى وخرج عن المنهج، وهنا يجب أن نتنبه إلى قوله تعالى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾، أى إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأمر قد صدر منه إلى الجن بالسجود فقوله تعالى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾، دليل على أن أمر الله سبحانه وتعالى صدر إلى الملائكة، ومن هم أدنى منهم وحتى يحسم الله الجدل البشرى الذى سيحدث حول ذلك، أتى بها صريحة مباشرة بعد أن ذكرت مُجملة فى أمر السجود للملائكة، ففى الأمر الأول لم يفصل لنا الله من شملهم أمر السجود. ولكنه فى هاتين الآيتين ذكر لنا أن أمر السجود لآدم قد شمل الجن وإبليس الذى كان من الجن، وأن إبليس عصى أمر ربه بالسجود حتى لا يأتى قائل ويدعى كما يقال الآن، إن الأمر بالسجود لم يشمل إبليس لأنه كان من الجن، والله قال: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

دليل على أنه لم يشذ ملك واحد عن أمر الله بالسجود؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

لماذا لم يسجد إبليس؟ يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ ﴾.

ويقول فى سورة «ص»: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ويقول فى سورة «البقرة»: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ويقول فى سورة «الكهف»: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾.

الآية الأولى تبين لنا أن إبليس رفض السجود، والآية الثانية تعطينا تفاصيل أكثر وتقول إن الكبر قد ملأ صدر إبليس واستكبر على أمر الله بالسجود، والآية الثالثة تبين لنا أنه لم يرفض السجود فقط، ولكنه رفض واستكبر على أمر الله، أى إنها جمعت الصفتين معاً، والآية الرابعة تبين أنه عصى أمر ربه، هذه الآيات تصور لنا أبعاد المعصية التى تمت، فعندما أصدر الله سبحانه وتعالى أمره إلى إبليس بالسجود فإنه رفض تنفيذ الأمر، وهذه هى المعصية الأولى، أمر من الله يصدر وإبليس يرفض التنفيذ.

وما دام إبليس قد رفض التنفيذ فلابد أن نعرف بديهيا أن الله سبحانه وتعالى خلقه مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل، فلولا أن الله أعطاه حق الاختيار، لما استطاع إبليس أن يرفض السجود حين أمره الله بذلك، وهنا دخل إبليس فى المرتبة الأولى وهى المعصية،

والله سبحانه وتعالى في منهجه أمر بأشياء ونهى عن أشياء، وخلق الإنسان في الدنيا مختارا في أن يطيع أو لا يطيع، أي إن ذلك يحدث باختيار البشر حتى يكون الحساب عدلاً، وبما أن الجن أعطاه الله حق الاختيار كالبشر، فهو يملك أن ينفذ أو أن يأبى التنفيذ، وحسابه على ذلك يكون من الله في الدنيا وفي الآخرة.

ولكن إبليس لم يرفض تنفيذ أمر السجود فقط، ولكنه استكبر عن تنفيذ أمر الله، أي إنه دخل الكبر إلى نفسه، فلا يمكن أن يقال إنه سها مثلاً عن السجود، أو أنه نسي، أو أنه عصى فقط، بل إنه استكبر على أمر الله سبحانه وتعالى، أي كانت المعصية بعدم الطاعة استكباراً على أمر الخالق والعياذ بالله، وهنا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين، لماذا؟ لأن الاستكبار على أمر الله هو إهدار لمعنى الألوهية في النفس، فالإله هو القوى القادر الذي يعبد ويطاع، وما دُمت قد آمنت بالله ربا وخالقا، فإنك قد أوجبت على نفسك الطاعة، وأسلمت زمامك لله، وآمنت بأنه هو العليم والحكيم والقادر، والإيمان هو خشوع لله، هو اعتراف من النفس البشرية بضآلتها أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون].

أي إن الخشوع لله هو علامة الإيمان، قد تزل النفس البشرية، وترتكب المعاصي، ولكنها تعود فتتذكر قدرة الله فتستغفر، وقد تكون النفس البشرية ضعيفة فلا تقوم بتطبيق المنهج كما أمر الله به، ولكن هذا لا يعني أنها استكبرت على الله، بل هو ضعف في أن تحمل النفس صاحبها على المنهج، وقد تُلهي الإنسان الدنيا ولكن إذا ذُكر الله تعالى أحس بالرهبة تملأ قلبه.

وإذا ذكره أحد بالله قال: سبحانك، ولكن الذي يستكبر يريد أن يضع نفسه فوق مرتبة الألوهية؛ إنه لا ينفذ الأمر فقط، ولكنه يحس أنه أكبر من أن ينفذه، وأكبر من أن يؤمر؛ وأنه أكبر من أن يطيع، وفي هذه الحالة يكون قد وصل إلى مرتبة الكفر، والعياذ بالله، وهي المرتبة التي وصل إليها إبليس حين استكبر أن ينفذ أمر الله بالسجود، ولذلك وصفة الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين.

وهنا . ولأن الكبر دخل في إبليس نفسه ولم ينطق به، ولأن الكفر ملأ نفسه ولكنه لم يعلنه، أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس شاهداً على نفسه بالكفر، حتى لا يأتي يوم القيامة وينكر ذلك، أو يحاول أن يلتمس الأعذار، وبذلك يكون إبليس شهيداً على نفسه، كما سيكون الكافرون شهداء على أنفسهم يوم القيامة.

ولنوضح هذه النقطة قليلاً، الله سبحانه وتعالى يَعلَمُ ما تخفي الأنفس وما تكن الصدور، وهو يعلم السر وما هو أخفى من السر، والسر هو الذي تهمس به إلى أحد من أصدقائك أو إخواتك الذين تثق بهم على أن يكون هذا في الخفاء، أي بينك وبينه من دون أن يعلمه أحد غيركما، أي إن السر يشترك فيه اثنان، ولكن ما هو أخفى من السر هو ما

تخفيه فى صدرك ولا تبوح به لأحد أبداً، ولكنه يبقى فى صدرك وحدك ولا تبوح به لأحد أبداً، والله سبحانه وتعالى حين أعطى للإنسان حق الاختيار جعله شهيداً على نفسه، بمعنى أن الإيمان يمر بتجربة عملية مشهودة، لأن القول غير العمل فأنت حينما يأتى إليك شخص يطلب منك شيئاً قد تعده به، ولكن عندما يأتى وقت التنفيذ تتكاسل، أو تجد أن الأمر صعب، أو تجد أن المسألة محتاجة منك إلى جهد، فلا تترجم ما قلته إلى عمل فأنت حين يقال لك لا تكذب، ولا تسرق، ولا تشرب الخمر إلى آخره؛ من السهل على النفس البشرية أن تقول نعم لن أفعل ذلك، وهذا ليس اختباراً حقيقيا للإيمان.

ولكنك لو وجدت المال الحرام أمامك وتستطيع أن تأخذه دونما أن يراك أحد؛ فإنك فى هذه الحالة قد تضعف، وتسول لك نفسك أن تمد يدك إلى المال الحرام، رغم أنك قد عاهدت الله على ألا تمد يدك، وأنت حين تجلس فى مجالس الخمر قد تمتد يدك لتتناولها ضعفاً منك أو إغراء ممن يتناولون الخمر حولك.

وهكذا جعل الله أحداث الدنيا اختباراً عمليًا للإيمان وتمحيصاً لما فى الصدور، وهو يبلوك بالخير والشر ليرى أتطيعه فى الخير وتنفق فيما يرضى الله أم تنفق فى المعاصى، وليرى إذا كنت ستصبر على الشر وتحمد الله أم ستضيق نفسك وترتكب ما يغضب الله، وليس هذا عن عدم علم الله بما ستفعل ولكن لتكون شهيداً على نفسك يوم القيامة، تماماً كما تأتى للطالب فى العام الدراسى وتسأله هل أديت واجبك، واستذكرت دروسك فيقول: نعم. فتقول سأمتحنك، الأستاذ عندما يمتحن تلميذه لا يمتحنه ليزداد منه علماً، أو لأنه يجهل ما يعلمه التلميذ، فهو الذى علمه؛ ولكن ليكون التلميذ شهيداً على نفسه؛ فإذا رسب فى الامتحان وجاء يجادل أستاذه، والإنسان أكثر شىء جدلاً، إذا حدث ذلك أخرجت له ورقة الامتحان أمامه، وأريته إجابته فلا يستطيع أن ينطق، وفى ذلك يقول الله تعالى عن الحساب يوم القيامة: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

ولذلك شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يجعل إبليس شهيداً على نفسه فقال:

﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣٢].

وقال: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢].

ويجب ألا نأخذ هذا الاستفهام من الله سبحانه وتعالى؛ أنه عدم علم بما فى صدر إبليس من الاستكبار، فالله تبارك وتعالى يعلم لماذا لم ينفذ إبليس أمر السجود لآدم رغم أن إبليس لم ينطق بذلك، ومن هنا فإن هذا السؤال ليس استفهاماً؛ فعلمُ الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شىء، ولكن لكى يكون إبليس شهيداً على نفسه يوم القيامة، وفعلاً فإن إبليس الذى ركبه الكبر والغرور نطق ليشهد على نفسه شهادة الكفر فقال: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣].

وقال: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦].

وقال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

وهكذا شهد إبليس على نفسه بالكفر ورد الأمر على الآمر، وأخرج الكبر الذى كان يعلمه الله والذى أخفاه إبليس فى صدره؛ فقال: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣].

أى إنك يارب خلقت من هو أدنى منى، ثم أمرتنى أن أسجد له، وهكذا أنكر على الله سبحانه وتعالى الأمر، وقال أنا خير منه، أى إنه لم يتعال فقط على آدم بل تعالى على أمر الله له بالسجود لآدم، فقال أنا خير منه، وكأن علمه والعياذ بالله يفوق علم الله الذى خلقه، وأضاف فى حيثيات حكمه هذا: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

وفى كلا الأمرين تظهر حماقة إبليس التى قادته إلى الكفر، وغباء إبليس الذى أدى إلى طرده من رحمة الله، فهو يقول فى الحيثية الأولى: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

ثم يضيف فى الحيثية الثانية: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

وهنا يعترف إبليس بأن الله هو خالقه وهو خالق آدم، وهذه حقيقة لم يستطيع إبليس أن ينكرها لأنه مهما بلغ من الكبر، فإنه لا يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه، وما دام إبليس يعترف بأن الله هو الخالق، فإن الذى خلق هو أعلم بمن هو خير، ولا يعلم هذه الحقيقة إلا الخالق، فليس هناك من هو أدرى بخلقه من خالقهم؛ فإذا كان الله تعالى هو الذى خلق، وهو العليم بخلقه قد كرم آدم فهل يأتى المخلوق ويقول للخالق: ﴿ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾.

وهل المخلوق أعلم من الخالق بما هو خير وما هو شر؟ إن الذى يصنع شيئاً هو أدرى الناس بصنعته، فإذا صنع إنسان آلة مثلا فهو أدرى الناس بها، وكل من يستخدم هذه الآلة يأخذ علمه من صانعها، فإذا صنع آلة أخرى هى خير من الآلة الأولى ثم قال ذلك للعالم أجمع، فلا أحد يستطيع أن يناقشه لأنه هو الصانع وهو الأدرى بصنعته.

فإذا كان ذلك يصدق فى دنيا البشر، فما بالك مع الله سبحانه وتعالى، أيأتى مخلوق والعياذ بالله ليقول لخالقه أنا خير منه، أيستطيع مخلوق مهما علا وبلغ أن يقول لخالقه أنا خير من فلان الذى خلقته؟ أليس هذا غباء وعدم فطنة؟ ولكنه الكبر يُعمى الصدور ويوقف العقول ويجعل المخلوق يحسب بغروره أنه لا عليم غيره، ولا حكيم سواه، ولو كان هذا الكبر عن عمل أو عن علم، لكان هناك التماس لعذر ما، ولكن إبليس لم يعمل شيئاً تميز به عن آدم، ولم يعلم سر خلقه ولا سر خلق آدم، ومع ذلك فقد دفعه الكبر إلى الكفر، ودفعه الكفر إلى أن يرد الأمر على الله ويقول إنه خير من آدم لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين، وهل مادة الخلق هى التى تميز مخلوقا عن مخلوق أم أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق ووضع الأسرار والصفات فى هذا وذاك هو وحده جل جلاله

الذى يقول مَنْ أفضل مِنْ مَنْ؟ لأننا نعلم أنه هو الذى خلق وهو وحده الذى يعلم من هو خير مِنْ مَنْ ولا يستطيع أحد أن يدعى هذا العلم.

وهكذا نطق إبليس بالكفر ورد الأمر على الآمر، وقال: لا أسجد لأننى أنا خير منه، وأوهمه الجهل أنه يعلم بينما هو لا يعلم شيئاً.

حينما فعل إبليس ذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [الحجر].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ [ص].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

فى هذه اللحظة التى نطق فيها إبليس بالكفر، طرده الله سبحانه وتعالى من رحمته، وطرده الله سبحانه وتعالى من جناته، وطرده الله سبحانه وتعالى من عظيم نعمه، وجعل عليه اللعنة إلى يوم القيامة، وجعله من المرجومين، وهنا خَرِسَ إبليس الذى كان يقول لله أنا خير منه فلم يستطع حين طرده الله أن يفعل شيئاً، وكما قال أنا خير منه ورد الأمر على الله، وكما قال لن أسجد ورد الأمر على الله، كان يستطيع أن يقول لو أن له حولاً وقوة لن أخرج، ولكنه فى السجود وعدم استخدام مشيئة الله فى أنه جعله مختاراً فى أن يسجد أو لا يسجد، أما عندما قال له الله اخرج منها؛ فقد كان ذلك أمرا من الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إبليس أن يعارضه، لأن الله جل جلاله لم يعطه الاختيار فى أن يخرج أو لا يخرج.

وقال الله سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ و ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾

أى اللعنة على عمومها من كل طائع لى، مسبح بحمدى، سواء كان من الملائكة، أو من البشر، أو من كل ما خلق الله، وفوق لعنات هؤلاء جميعاً فإن عليه لعنة الله التى هى أكبر وأقوى من كل هذه اللعنات والتى ستتبعه إلى يوم القيامة حيث يخلد فى النار.

وهنا يثور سؤال؛ لماذا لم يُلق الله سبحانه وتعالى بإبليس فى النار فى اللحظة التى أعلن كفره فيها ورد الأمر على الآمر؟ نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد أخذ على نفسه عهداً بأن يوم القيامة هو يوم الحساب، ومن أصدق من الله حديثاً؟ ولذلك لم يكن الله ليغير أمره ويأخذ بإبليس ويلقيه فى جهنم فى التو واللحظة؛ بل كان لابد أن ينتظر إلى يوم الحساب؛ لأن الله لا يخلف وعده، تماماً كما يمهل الله الكافرين فى الدنيا ولا يأخذهم ليلقى بهم فى النار لحظة كفرهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

هنا تضاءل إبليس وأحس بالذنب الذى ارتكبه، تضاءل بعد أن كان مستكبراً على

الله سبحانه وتعالى، يرفض السجود ويقول أنا خير منه، تضاءل ليقول: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

هنا تضاءل إبليس ولو كان يملك من الأمر شيئا لتصرف بذاتية قوته، ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة، إلى أن تقوم الساعة؛ ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء، وفي هذا نرى أن القوة لله جميعاً، وأن إبليس لا يستطيع أن يبقى نفسه يوماً واحدا على قيد الحياة أو ينجي نفسه يوماً واحدا من العذاب، فبماذا توسل إبليس إلى الله؟ هل توسل له بعطاء الألوهية الذي أنكره؟ لو أنه توسل بهذا ما استجاب له الله لأنه كفر بعطاء الألوهية وأنكره، ولكنه توسل إليه بعطاء الربوبية، فالله رب العالمين هو الذي استدعى هذا الخلق كله إلى الوجود وبما أنه سبحانه وتعالى رب لكل المخلوقات المؤمن منهم والكافر، فقد أعطى عطاء ربوبيته للجميع - المؤمن والكافر - أعطاهم مقومات حياتهم بلا تمييز، وكفل لهم حقوقهم بلا تمييز، فلا يجوز أن يعتدي إنسان على إنسان بغير حق، سواء كان ذلك الإنسان مؤمنا أو كافرا، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

ولم يقل ولا تقتلوا المؤمنين إلا بالحق، ولكنه قال النفس على إطلاقها وقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهكذا شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يكون عطاء ربوبيته لكل من استدعاهم للوجود متساويا، وإنما الذي يختلف فيه الناس هو عطاء الألوهية؛ فمن آمن به سبحانه وتعالى إلهاً كرمه في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عاقبه الله بذنبه.

تضاءل إبليس وتوسل إلى الله بعطاء الربوبية أن يبقيه إلى يوم يبعثون، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أي إنه توسل إلى الله سبحانه وتعالى بأن الله عزيز وغني عن خلقه جميعا، ولا يضيره ولا ينقص من ملكه شيئاً، ولا يمس عزته أن يُبقي إبليس إلى يوم القيامة أو لا يبقى، وحينئذ قال الله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝﴾ [الحجر].

حينئذٍ.. وحين تيقن إبليس أنه سيبقى إلى يوم القيامة طفحت عوامل الشر المختفية في نفسه، والكراهية الشديدة لبني آدم الذي كان سبباً في طرد إبليس من رحمة الله تعالى، وأفصح إبليس عن نواياه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، إذا كانت الغواية من الله فكيف يحاسب إبليس؟ نقول لمن يسأل هذا السؤال؛ أنه لا شيء يقع في كون الله بدون إرادته، والله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنس والجن مختارين، فهذه مشيئة الله ولا يمكن لأحد أن يَدَّعي أنه خُلق مختاراً بذاته، أو أنه أعطى حق الاختيار لنفسه، إذن.. كانت مشيئة الله في أن يخلق الإنس والجان مختارين، ومن هذه المشيئة اختار إبليس

الكفر فلو أن الله سبحانه وتعالى خلقه مسخراً لكان خاضعاً لا إرادة له، ولكنه أعطاه الإرادة، فبدلا من أن يختار الإيمان اختار الكفر، وكان يستطيع أن يختار الإيمان. إذن.. فالغواية أساساً تمت لأن إبليس خُلق مختاراً، خُلق يستطيع الاختيار بين البدائل، ولكن الكفر وقع لأن إبليس اختار المعصية بدلاً من أن يختار الطاعة، وحيث أن الله سبحانه وتعالى لم يجبره على اختيار الكفر، يكون إبليس قد اختار الكفر لنفسه وبإرادته التى لم يتدخل فيها أحد، اختار الكفر بذاته فاستحق العقاب، ولكن هذا الاختيار أمكن أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الإرادة الحرة فى أن يفعل أو لا يفعل، ولكن الله لم يكرهه على الكفر ولكن الذى اختار الكفر بإرادته هو إبليس.. وهكذا نعرف معنى الآية الكريمة: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩].

وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

أى: بعزتك وأنك عزيز مستغن عن خلقك، لك كمال صفاتك من ذاتك لا تحتاج لخلق من خلقك، بعزتك هذه أعلم أنك لن تجبر أحدا على الإيمان قهرا، ولذلك فإننى سأنتقم من بنى آدم، وأزين لهم الدنيا وأجملها فى أعينهم، وأزين لهم الشر، وأزين لهم المعصية، وأزين لهم البعد عن صراطك المستقيم، وأزين لهم الباطل، ولكن هل قال إبليس إنه سيفعل هذا مع الناس على إطلاقهم؟ لا.. فإن هناك عطاء ألوهية يحمى المؤمن ويحرسه وينجيه من كل شر، ومن كل إغواء، وعطاء الألوهية يحرس المؤمنين، لذلك قال إبليس: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [الحجر].

هنا نقف وقفة، هل قال إبليس هذا منة منه على عباد الله المخلصين؟ أو رحمة بهم من أن يوسوس لهم بما يؤدى بهم إلى العذاب والتهلكة؟ لا، فهو يُكِنُ العداوة لبنى آدم كلهم وهو يحاول أن يغوى كل من هو على الصراط المستقيم، ولكنه قال هذا لأنه يعرف أن عطاء الألوهية يحرس عباد الله المخلصين، وهنا أراد الله أن يوضح هذه النقطة فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وهنا لابد أن نلاحظ استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة عباد؛ فهناك عبيد، وهناك عباد كُلنا عبيدٌ الله، المؤمن فينا والكافر، والمطيع منا والعاصى، ولكن عباد الله هم الذين أخلصوا دينهم لله، ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين فى القرآن الكريم إنما يستخدم لفظ عباد: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [إبراهيم: ٣١].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ ﴾ [الفرقان].

ولذلك فإن قول الله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾.

لا يسرى على كل خلق الله، ولكنه ينطبق على كل مؤمن مخلص لله في عبادته، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

أي: من كان مخلصاً لله تعالى من عباده المؤمنين، ثم بعد ذلك فسق وغوى، وابتعد عن المنهج، وكفر بعد إيمان، وعصى بعد طاعة، فهؤلاء إن فعلوا ذلك لم يصبحوا عباداً لي؛ بل أصبحوا عبيداً وخرجوا من حماية عطاء الألوهية لهم من غواية الشياطين، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥]. أي إنه من توكل على الله؛ فإن الشيطان لا يستطيع أن يصل إليه.

ويبين الله سبحانه وتعالى طريق الغواية الذي سيتبعه الشيطان؛ فيقول: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

أي: إن الشيطان سيحيط بالإنسان من كل جهة، ويحاول غوايته والوسوسة له، ولكن هناك جهتين لا يأتي منهما الشيطان أبداً، فلم يقل ومن تحتهم لأن ذلك مكان السجود، ولم يقل ومن فوقهم لأن ذلك مكان رفع الصلوات و الدعاء إلى الله تعالى، وهنا يُبين الله سبحانه وتعالى أن كيد الشيطان لا يؤثر على ملك الله، فعندما يقول الشيطان: أنه سيأتي للإنسان من الأمام، والخلف، واليمين، والشمال، ويحيط به، يقول الله سبحانه وتعالى تحقيرا لشأن الشيطان ومن يتبعونه: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

الشيطان يتوعد الإنسان، ويقول: إنه سيغرر به في الدنيا عن طريق التزيين؛ وأنه سيحيط به ليغويه كل لحظة، والله سبحانه وتعالى يقول له: بل أفعل أكثر من هذا، املأ آذان من استطعت منهم بصوتك، وأرهبهم بالقوة سواء كانت من الخيل، أو راجلة تمشي على أقدامها، وشاركهم في الأموال، وفي الأولاد، كيف يحدث ذلك؟ هل للشيطان صوت نسمعه؟ هل للشيطان قوة حربية تحاربنا؟ هل للشيطان أموال وأولاد؟ نعم، كل قوى الشر في العالم يستخدمها الشيطان، فهناك من الذين كفروا من ينطقون باسمه، وينشرون الكفر والإلحاد، وهناك جنود الشيطان الذين يحاربون الحق، ويعتدون على الآمنين، ويبيدون الشعوب المؤمنة، ويخنقونها سواء أكان اقتصاديا أم عسكريا، وهناك المال الحرام الذي يزينه الشيطان للناس فيرتكبون به المعاصي، هذه مشاركة الشيطان في المال يحوله من حلال إلى حرام، وهناك مشاركة الشيطان في الأولاد أن ينشأوا على غير طاعة الله، وينشأوا وقد عرفوا المعاصي، ولم يعرفوا الطاعة، كل هذا متاع الغرور، أي ليس حقيقة، ولكنه مجرد غرور وكبر في الدنيا، ثم تأتي نهاية الحياة فلا يأخذ الإنسان معه

شيئاً إلا المعاصي، يترك المال، ويترك القوة، ويترك الجاه، ويترك السلطان، ولا يجد إلا الله ليوفيه حسابه، كل ما في الدنيا هو متاع الغرور إلا الطاعة؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝ ﴾ [الحاقة].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾

والغرور هنا معناه الوعد الكاذب الذي لا يتحقق، أي إن وعود الشيطان وما يزين به للناس المعصية، ما هو إلا كذب لا يمت إلى الحقيقة بصلة.

بقيت بعد ذلك نقطتان:

النقطة الأولى: هل كان إبليس يعيش مع الملائكة وقت أن أصدر الله سبحانه وتعالى الأمر بالسجود؟ بعض الناس قالوا إن الجن والملائكة كانت تعيش ذلك الوقت في مكان واحد، ولكن هذا القول يضع قيودا على قدرات الله سبحانه وتعالى؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان، ولذلك فإنه ليس من موجبات وصول أمر السجود إلى إبليس أن يعيش مع الملائكة في مكان واحد وقت صدور الأمر بالسجود، ولو كان إبليس يعيش في آخر الدنيا والملائكة يعيشون في السماوات العليا فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوصل أمر السجود إلى الملائكة، وإبليس في اللحظة نفسها رغم بعد المسافة، والله لا زمان عنده ولا مكان، لأن الزمان والمكان من خلق الله؛ ولذلك فهذه ليست قضية تثار ولا جدلا يستحق الرد.

والنقطة الثانية: هل كان إبليس يعيش في الجنة ثم طرد منها بعد المعصية مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ [ص: ٧٧].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقول الله فاخرج منها لا يعني مكاناً على وجه التحديد، فقد يكون الطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى، قد يكون الطرد من نعم الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ ليس معناه هبوط المسافات التي نتحدث عنها، وإنما معناه ذلة في القدر، وحطة في القيمة وتنزيل من مقام عليّ إلى أسفل سافلين، والخروج منها يكون خروجاً من نعم الله سبحانه وتعالى كلها، وأنت تقول إن فلانا هبط في نظري، ومعنى ذلك أنه وصل إلى درجة من الانحطاط بحيث أصبحت أنظر إليه نظرة احتقار، ولا يوجد ما يجزم أن إبليس كان يعيش

فى الجنة قبل المعصية، ولا أنه كان يعيش مع الملائكة، وسواء كان خروج إبليس معنويا أو حسيا فإن المعنى لا يختلف فى أن الله طرده من كل نعيم كان يعيش فيه وأنزله من كل مقام كان له إلى أسفل سافلين، والمهم فى هذا كله أنه يرينا شدة غضب الله عليه، وشدة تحقير الله له، وهذا ما يجب أن نفهمه من دون الدخول حول هذا الموضوع.

نأتى بعد ذلك إلى معصية آدم وكيف استطاع إبليس أن يوقعه فى المعصية.

معصية آدم..
هل هى سبب الخروج من الجنة؟

كثير من الناس يَدَّعُون أن خطيئة آدم هى سبب خروج الإنسان من الجنة، وتجد منهم من يقول لك إنه لولا أن آدم أخطأ وعصى ربه لكنا نعيش فى جنات النعيم، بدلاً من ذلك الشقاء الذى يملأ الأرض، بل إن بعض النظريات التى وضعها الإنسان ونسبها إلى الله زوراً هو أننا نُعذب فى الأرض بسبب خطيئة آدم، وأن هذه الرحلة الأرضية بما فيها من عذاب هى تكفير للخطيئة التى ارتكبها آدم فى الجنة، والتى أدت إلى طرده هو وذريته منها وأنه لابد أن يكون هناك من يتحمل آلام البشرية وخطيئتها، حتى تعود للجنة من جديد فإن هناك من يدعى أن هناك من نَزَل من السماء وأمضى أسبوعاً من الآلام، والبكاء، والدموع إلى آخر ما نسمعه.

وهذه النظرية مبنية على أن العقوبة تورث، أى: إن ذريَّة آدم قد ورثوا مع ما أخذوه من صفات جسدية، قد ورثوا المعصية عن آدم، وأن هذه المعصية تُوَرث من جيلٍ إلى جيل إلى جيل حتى قيام الساعة، وأننا لابد أن نبكى وأن ننتحب طالبين المغفرة من خطيئة آدم، كل هذا يقال وتجد كثيرا من الناس يأتون بأشياء ونظريات واهية.

والذى أحب أن أبينه قبل أن نبدأ هذا الحديث أن آدم خلق ليعيش فى الأرض حياة دنيوية وأنه فى ساعة الخلق قال الله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

إذن.. آدم خُلق ليكون خليفة لله فى الأرض وليعمرها، ولم يُخلق أساساً ليعيش هو وذريته فى الجنة، ولكنه خُلق لينزل إلى الأرض و يعيش فيها، ثم تأتى الآخرة، ويكون هناك ثواب و عقاب، فيدخل المؤمنون الجنة، ويعذب الكافرون فى النار، وهذا هو قدر الله الذى أراده لبنى آدم، ولو أن آدم استمر فى الجنة فكيف يمكن أن يكون هناك حساب وثواب وعقاب وخطيئة وتوبة وإيمان وكفر، إلى آخر ما فى الحياة الدنيا، فكيف كان يمكن أن يكون ذرية ولا تناسل فى الجنة.

والحديث عن خطيئة آدم، وأننا نتحمل هذه الخطيئة ونعذب بها فى الدنيا، حديث يتنافى مع عدل الله سبحانه وتعالى، لأن الله لا يعذب أحدا بذنب أحد، ولا يعذب إنسانا بخطيئة إنسان آخر، فالله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥].

أى: إن أحداً لا يتحمل ذنوب الآخر، و إنما يحاسب كل شخص على ما ارتكبه

من ذنوب وآثام، كل إنسان يحاسب على عمله من حسنات، وسيئات، وطاعات، أما قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فذلك ليس معناه أن الإنسان يتحمل خطأه وخطأ غيره، بل ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن المضلين الذين يُضِلُّون الناس فى الأرض ويُزينون لهم طريق المعصية، فهؤلاء يحملون أوزارهم أو معاصيهم التى ارتكبوها، ويحملون أيضاً أوزار أو معاصى الذين أضلوهم بغير علم، لأنهم كانوا السبب، وعملوا على أن يزينوا للآخرين طريق المعصية والضلال، فهم فى هذه الحالة يحملون وزرين أو معصيتين، وكلا الوزرين أو المعصيتين هو من أعمالهم، فالمعصية الأولى الإثم الذى ارتكبوه، والمعصية الثانية الإثم الذى دفعوا غيرهم إلى ارتكابه بتزيينه لهم بالباطل وترغيبهم فيه، وهذا القول متمشٍ مع عدل الله سبحانه وتعالى فى أنه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥].

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سن فى الإسلام سُنةً حسنةً فله أجرها، وأجرُ مَنْ عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومَنْ سن فى الإسلام سُنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزرُ مَنْ عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[1].

والسؤال الذى يثيره البعض هو أنه إذا كان الشيطان قد أغوى آدم، وجعله يأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة فما ذنبى أنا لأطرد معه وأعيش فى شقاء الدنيا وكبدها؟ السؤال بهذه الطريقة هو بعيد ومجاف للحقيقة، فآدم لم يكن يعيش فى الجنة الآخرة كما يفهم بعض الناس، بل إن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم يكن فيها خلود، ولم يكن فيها من النعيم ما فى الجنات التى وعد بها المتقون فى الآخرة، بل كانت تجربة عملية، يريد الله بها أن يبين لآدم وذريته كيف يكون إغواء الشيطان وما هى نتيجته، وكيف أن الغفلة تدخل إغواء الشيطان إلى النفس البشرية، وكيف أن الشيطان عدو للإنسان، وكيف أنه كاذب فى وعوده التى يُمنى بها الإنسان ليقوده إلى معصية الله.

والله سبحانه وتعالى لم يُطلق فى القرآن الكريم لفظ الجنة على جنات الآخرة فقط، ولكنه أطلقه على كل مكان ظليل تتوافر فيه الثمار و الحياة الطيبة، وبذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف: ٣٢].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥].

ويقول: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا

---

(١) رواه مسلم [١٠١٧/٦٩] عن المنذر بن جرير عن أبيه رضى الله تعالى عنه.

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تعطينا الدليل القاطع على أن اللّه سبحانه وتعالى أطلق لفظ الجنة على جنات فى الدنيا، وأن قول اللّه سبحانه وتعالى لآدم: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١١٧].

ليس معناه الخروج من جنة الآخرة، أو من الجنات التى أعدها اللّه للمؤمنين فى الآخرة، لأن آدم وذريته المؤمنة سيدخلون الجنة فى الآخرة، ولكن اللّه سبحانه وتعالى لم يُرد أن يُلقى آدم وذريته إلى الحياة الدنيا، حتى يُبين لهم بطريقة عملية كيف أن الشيطان سيكون عدوا لهم، وكيف سيوسوس لهم الشيطان ليقودهم إلى النار، ولنبدأ خطوة خطوة.

اللّه سبحانه وتعالى حين خلق آدم وقال للملائكة اسجدوا لآدم، وسجدوا إلا أبليس، أراد اللّه أن يُبين لآدم أن إبليس عدو له، وأنه سيحاول أن يجعله يفسد فى الأرض ويهلك الحرث والنسل، ويعصى أمر اللّه ولا يحصد إلا الندامة والعذاب، فقال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ ﴾ [طه].

أول شىء حدث حتى يكون عدل اللّه كاملاً أن اللّه نبه آدم إلى ما يريد أن يفعله إبليس، فقال له: إن هذا أى إبليس عدو لكما.

هنا من القرآن الكريم نعرف أن آدم حينما عاش فى المكان الذى وصفة اللّه بأنه جنة كانت معه زوجته حواء، أى: إن اللّه بعد أن خلق آدم خلق حواء. وفى ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١].

ويقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا . . . ﴾ [الروم: ٢١].

وهكذا نعرف أن اللّه خلق آدم ثم خلق حواء من آدم، وهكذا تمت مرحلتان من مراحل الخلق الأربع وهى: خلق بدون ذكر أو أنثى، وهو خلق آدم، وخلق من ذكر بدون أنثى وهو خلق حواء، ولقد خلق اللّه حواء من ضلع آدم.

إذن . . فبداية حياة آدم كانت من ذكر وأنثى؛ وهكذا وضع قانون التكاثر لآدم ولكل مخلوقات اللّه من ذكر وأنثى كما بينا من قبل، بين اللّه سبحانه وتعالى لآدم وحواء إبليس ونواياه وقال: إن هذا عدو لكما، وأنت إذا قلت لأى إنسان إن هذا الشىء عدو له، فإنك تريد أن تُحذره منه، فإذا جاءه بنبأ لا يصدقه وإذا اقترب منه ابتعد هو عنه أو اتخذ موقف الاستعداد ليواجهه وينازله، وإذا طلب منه أن يفعل شيئاً فإنه لا يفعله، لأنه يعلم أن فى

هذا الشيء هلاكه ما دام الذى جاء به عدو له، وإذا أعطاه الطعام والشراب وقال له كل من هذا فلا يأكل منه، لأنه قد يكون قد دس السم له ليقتله، وإذا حدث ونسى ذلك الإنسان ما قلت له محذرا بأن هذا عدو له تكون فى هذه الحالة أنت قد أبرأت ذمتك، ويكون الوزر على ذلك الذى لم يستمع التحذير.

ومن هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى شاء عدله قبل أن يدخل آدم ليبدأ مهمته أن يحذره من الشيطان، وأن يقول له إن الشيطان عدو يريد له الأذى والهلاك، فكانت هذه هى البداية بالتجربة التى سيمر بها آدم والتى تمثل تجربة عملية لما سيحدث له فى الحياة فى الأرض، حتى يقول يا رب أنت لم تحذرنى من الشيطان، ولو أنك يا رب حذرتنى منه وقلت لى إنه يريد إيذائى، يريد أن يهلكنى، لو أنك قلت لى يارب ذلك لما أطعته يا رب أبداً، ولما استمعت إلى وسوسته، ولكنك يا رب ألقيتنى فى الحياة الدنيا بدون أن تبين لى عداوة الشيطان، فحسبت أنه صديق، وأنه ناصح أمين فاتبعته، يا رب فكيف تُحاسبنى الآن فى الآخرة على ما حدث منى بوحى من الشيطان، حتى لا يقول الإنسان ذلك لله فى الآخرة وقت الحساب، وما أكثر الأعذار التى سيقولها الإنسان فى وقت الحساب، حتى لا يحدث ذلك، جاء الله بهذا وقال لآدم إن الشيطان عدو لك فاحذره، وأنا أقول لك ذلك حتى لا تأتى فى الآخرة وتقول: يا رب لا تحاسبنى، وهنا يجب أن نعرف أيضاً أن التحذير لابد أن يسبق الفعل، بمعنى أنه إذا وقع شيء يغضبك ولم تحذرنى منه من قبل فإن الحساب لا يكون عدلاً، ولكن إذا حذرتنى ثم وقع منى الفعل وعاقبتنى يكون العقاب عدلاً.

وبعض الناس يتساءل كيف كلم الله آدم؟ نحن نقول: إنه إما أن يكون كلمه مثلما كلم موسى عليه السلام، وإما أن يكون وحياً، وكلا الأمرين ليس موضع جدل، فالمهم أن الله قد أبلغ آدم أن إبليس عدو له؛ وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ ﴾ [طه].

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ من الجنة فتشقى هو الذى أثار الجدل حول الجنة التى كان يقيم فيها آدم وزوجته، وقد بينا أن لفظ الجنة أطلقه الله سبحانه وتعالى على جنات السموات والأرض، ولكن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ قد أثار جدلاً ذلك أن معنى أنه يُخرج آدم وزوجته من الجنة فيشقيان أنهما كانا فى نعيم فَحُرِمَا منه، وبنى بعض الناس على ذلك أن هذا النعيم الذى كان يعيش فيه آدم وحواء هو الموجود فى جنات الآخرة، ولكن الآيات التى تلت هذه الآية تصف لنا الجنة التى كان يعيش فيها آدم والنعيم الذى كان فيه وهو نعيم محدود جدا بالنسبة لنعيم الجنة فى الآخرة؛ فالله يقول لآدم: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾

أى: إن فى هذه الجنة الثمار والطعام الذى يحتاجه آدم فى حياته متوافرا بلا جهد،

فهو لا يجوع فيها لأن الطعام أمامه متوافر دائماً، ولا يعرى لأن الله قد أعطاه اللباس الذى يستره، أو قد ستر عنه وعن حواء عورتها، واللباس هو ستر للعورة، أى إن آدم فى هذه الجنة لا يحتاج إلى جهد فى الحصول على طعامه هو وزوجته، وفى الحصول على اللباس الذى يستره ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾، أى إن آدم فى الجنة التى كان يعيش فيها الماء فيها متوفر، وهو لا يتعب ولا يبذل جهداً للحصول على ماء أو طعام أو لباس، بل يعيش فى الظل والنعم التى منها مقومات حياته أمامه بدون تعب أو جهد، هذا هو وصف الجنة التى عاش فيها آدم التجربة العملية المُحَسَّة قبل نزوله ليباشر مهمته فى الأرض، أين ذلك من جنات الآخرة؟ التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وجنة الآخرة أولاً: هى جنة الخلد، أى فيها الخلود، والجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلود كما سنبين بعد ذلك، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝ ﴾ [الواقعة].

ويقول الحق: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ . . . ۝ ﴾ [المطففين].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ ﴾ [الإنسان].

وإذا شئت تستطيع أن تعود إلى القرآن الكريم وتقرأ ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن الجنة فى الآخرة؛ لتجد أن الوصف مختلف تماماً عن الوصف الذى أورده الله سبحانه وتعالى عن الجنة التى كان فيها آدم وزوجته، فالجنة التى يعيش فيها آدم فيها نعيم محدود، وجنة الآخرة فيها نعيم بلا حدود.

وهكذا فإن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد، أو جنة الآخرة، فكل الأعذار التى يحاول بعض المفسرين أن يسوقوها ليجيبوا عن السؤال الذى يقول: كيف دخل إبليس الجنة ليوقع آدم وزوجه فى المعصية؟ والتى يحاول البعض جاهداً أن يقول: إنه دخل على هيئة كذا وكذا، نقول لهم: إن الله لا يريد من أحد عوناً على كلامه، إن هذه الجنة لم تكن جنة الخلد، وإبليس محرم عليه دخول جنة الخلد ولم يدخلها ولن يدخلها.

كفل الله لآدم وزوجته مقومات حياتهما بلا تعب ولا نصب، في مكان فيه ثمار وماء وكل مقومات الحياة، ثم بعد ذلك عَلَّمَ الله سبحانه وتعالى آدم المنهج فقال له: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

وكان هذا أول بيان لمنهج الله في أفعل ولا تفعل، والله سبحانه وتعالى أعطى لآدم وأباح له نعماً كثيرة، أباح له كل الثمر الذي في هذه الجنة، وأن يأكل ما يشاء في أي وقت يشاء، وحرَّم عليه شجرة واحدة، وإذا نظرنا إلى منهج الله في الأرض نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح من الطيبات الكثير، وحرم القليل، والقليل جدا فكل مقومات الحياة الطيبة مباحة للإنسان من الطعام والشراب، والأكل الحلال، والمال الحلال، ومن الثياب، ومن العمل والكسب، ولو أحصينا المحرمات لوجدناها قليلة جدا بالنسبة للمباحات، وهذا رحمة من الله بخلقه، فلو أن الله حرم الكثير، وأباح القليل، لكان المنهج مشقة لا يستطيع ولا يقدر عليه الكثيرون، ولكنه لأنه أباح الكثير وحرم أقل القليل، جعل الدين يسراً وخفف عن عباده، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهنا أيضاً نأتي إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وضع مبدأ العدالة في الأرض، وأنه لا عقوبة بدون تحريم، فلابد أن يأتي التحريم أولاً ثم بعد ذلك تأتي العقوبة، فإذا تمت العقوبة بدون تحريم لم يكن العقاب عدلاً، فأول شيء هو أن تحرم الفعل، فلابد أن تقول أولاً إذا قتلت فستعاقب بكذا، وإذا سرقت فستعاقب بكذا، وإذا فعلت كذا فستعاقب بكذا، وهذا لابد أن يأتي قبل أن يقع الفعل، بحيث إذا وقع تمت العقوبة، أما أن يصدر قانون بأثر رجعي؛ أي يطبق قبل أن يعلن تحريم الفعل فهذا ليس عدلاً ولا يتفق مع منهج الله الذي حرم الفعل أولاً فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾.

وحدد العقوبة فقال: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقال: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

وهكذا بين الله منهجه لآدم في أفعل ولا تفعل، وقال إن هناك أشياء قد حرمتها ومنعتها، وأنا أخبرك بها أولاً قبل أن يقع الفعل منك حتى إذا وقع الفعل يكون العقاب عدلاً وكان هذا الإعلام هو أول إبلاغ عن دين الله للإنسان، وأول وحي عَلَّمَهُم ما يجب أن يكونوا عليه في حركة حياتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليخرج آدم إلى حركة الحياة في الأرض بدون أن يدربه تدريباً عمليا يباشر فيه واقع التجربة، ولا يرسله الله للأرض بكلام نظري بدون واقع عملي يثبته ويبينه، لأن الإنسان قد يأخذ كلاماً نظرياً يقتنع به، ولكن حين يأتي التطبيق العملي يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشياً مع المنهج النظري، وهكذا شاءت رحمة الله بآدم ألا ينزله إلى الأرض بمنهج نظري، أن أفعل كذا ولا تفعل كذا، إلا بعد أن يربيه تربية دينية على المنهج، ويبين له عمليا ما يصادف الإنسان

المؤمن من إغواء الشيطان، وإغرائه، فإذا تمت التجربة العملية وعاشها آدم كواقع، نزل إلى الأرض ليباشر مهمته، وهو مدرب لا بالتوجيه فقط، ولكن بالتجربة، فلم يكن الله ليخبر آدم بمنهج نظرى، ثم يعاقبه على ما يقوم به.

ماذا قال الله لآدم؟ كُلا من كل شيء ولا تقربا هذه الشجرة، وهذا أمر بأفعل ولا تفعل، ثم حذره من إغواء الشيطان وعداوته له، وحذره من أن الشيطان سيجعله يقع فى الخطيئة، وهنا بدأ إغواء الشيطان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠].

الشيطان جاء لآدم فى المكان الذى يعيش فيه وهو ليس جنة الخلد كما بينا من قبل، وقال له: ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾.

واستخدم الله سبحانه وتعالى لفظ: ﴿ فَوَسْوَسَ ﴾، والوسوسة هى صوت الحلى ورنينها، أى إن الشيطان جذب بزينة الدنيا وهى: المال، والحلى، والشهوات. ماذا قال الشيطان لآدم؟ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾.

معنى هذا الكلام أن آدم لم يُخلق ليخلد فى هذه الجنة، ولو أنه خُلق كما سيحدث فى الجنة الآخرة ما استطاع أن يغويه الشيطان ويعده بأنه سيحقق له الخلود، إذاً ما يهم آدم ما دام قد خُلق فى جنة الخلد؟ وأن خلق خالداً أن يعصى أمر الله ليحصل على الخلود، فى حين أنه هو فعلا خالد بحكم خلقه.

إذن.. الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد، وإلا لما أغراه الشيطان بالخلود، وهنا نرى كيف أن الشيطان يستغل غياب التفكير السليم عن الإنسان، أو يستغل الغفلة كما نسميها، فلو أن هذه الشجرة تهب الخلد فعلاً، فلماذا تضرع الشيطان إلى الله يوم الدين؟ إنه كان يستطيع أن يأكل من هذ الشجرة، ويحصل على الخلود، ويمضى فى الكبر الذى بدأه، ولكن الشيطان يعرف أن هذه الشجرة لا تعطى خلداً ولا شيئاً إلا السوء ولكنه أراد بالكذب أن يغرى آدم حتى يعصى الله ويأكل من هذه الشجرة، وكان على آدم أن يتنبه أن الشيطان إذا كان يستطيع أن يمنح الخلد لمنحه لنفسه أولاً، وأضاف الشيطان فى إغوائه لآدم: ﴿ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾، أى مال ونعيم لا ينتهى، وهاتان آفتا الإنسان فى الأرض، فالإنسان يبحث عن خلود ولا يريد أن يموت أبداً، والإنسان فى حياته يخشى أمرين: إما أن يفارق النعمة أو تفارقه، يفارق النعمة بأن يموت ويترك كل ما يملك ويتنعم به فى الحياة الدنيا، وتفارقه النعمة أى تزول عنه لأى سبب من الأسباب، كأن يكون غنيًا ويصبح فقيراً، أو أن يكون ذا جاه ونفوذ فيذهب عنه الجاه والسلطان، ذلك هو هم الإنسان فى الدنيا وخوفه منها أن يفارق النعمة.

ومن هنا تأتى وسوسة الشيطان فى المعصية، إذا أردت ألا تفارقك النعمة فأفعل كذا وكذا اسرق، زور، نافق، اقتل من يعترض طريقك، أفعل كل ما نهى عنه الله، ولا تبال

فإنك إذا فعلت ذلك ولم تبال بمنهج الله بقيت معك النعمة، ويندفع الإنسان فى المعاصى فيسرق ويقول الزور، ويقتل، ويرتكب كل ما حرمه الله لتبقى النعمة معه، ولكنها رغم كل ذلك تزول، وهب أن هذه المعاصى قد أبقت النعمة فلم تفارق الإنسان وبقيت له، فإن الإنسان يفارقها بالموت، أو نهاية الحياة، فيصور له أن أمامه أعواماً طويلة سيعيشها، وأن أمامه عمراً مديداً سيستمتع فيه بهذه النعمة، وقد يكون أجل الإنسان غداً، ولكن الشيطان يوسوس له فى أنه سيعيش أعواماً وأعواماً وأعواما، يبقيه فى الإثم حتى ساعة الموت وحينئذٍ لا تنفع التوبة، ويكون الشيطان قد انتقم من الإنسان وجعله يسلك طريق النار والهلاك، وهذا هو هدف الشيطان فى عداوته للإنسان.

ثم يمضى سبحانه وتعالى فيقول: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف].

إذ إن الشيطان بعد أن قال لآدم وحواء إنه سيدلهما على شجرة الخلد وملك لا يبلى بعد أن زين لهما ذلك، دلهما على الشجرة، فإذا هى الشجرة نفسها التى نهاهما الله عن أن يقتربا منها، وهنا تردد آدم وحواء، فمضى الشيطان يزين لهما المعصية ويقول لهما إن الله لم ينههما عن الاقتراب من هذه الشجرة إلا أنهما لو أكلا سيكونان من الملائكة ويحصلان على الخلود، وتلك أيضاً كذبة استخدمها فى الإغراء، فآدم وحواء لم يخلقا أنفسهما، ولكن الله هو الذى خلقهما، فكيف يتحولان إلى ملكين؟ والملائكة مخلوقة من نور، والإنسان مخلوق من طين، كيف يتحولان من الطين إلى النور بدون إرادة الخالق الذى طلب منهما ألا يأكلا من هذه الشجرة؟ ولو أن هذا كان صحيحاً من أن المخلوق يملك تغيير طبيعته ومادته بدون مشيئة الخالق، لاختلطت الأجناس والمخلوقات وأصبحت السماوات والأرض مجموعة من الفوضى، ثم إن لكل مخلوق قوانين تتناسب مع مادته، فالإنسان وقد خُلق من طين له قوانينه التى تتناسب مع مادته، والجان التى خلقت من نار لها قوانين تتناسب مع مادتها، فهى ترانا ونحن لا نراها، مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالجان لأنه من مادة شفافة وهى النار لا نستطيع نحن المخلوقين من طين أن نراها، والملائكة المخلوقة من مادة أكثر شفافية وهى النور، ترانا ولا نراها، ونحن فى حساب الزمن نتحرك ببطء، ونقطع المسافات ببطء، مهما كانت السرعة التى نسافر بها، والجان له قدرة أسرع على الحركة، ويرينا الله سبحانه وتعالى ذلك حين يقول فى قصة سليمان وبلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]

أى: إن عفريت الجن عرض على سليمان أن يُحضر له عرش بلقيس من اليمن قبل أن تصل بلقيس ورجالها، وكانت بلقيس وقومها قد غادروا بلدهم منذ فترة من الوقت، على أن هذا العفريت سيقطع المسافة التى يقطعها الإنسان فى أسابيع أو شهور، يقطعها فى

ساعة أو أقل من ساعة، إذن . . فقوانين الجان مختلفة عن قوانين الإنسان، وقوانين الملائكة تختلف أكثر وأكثر، فكيف يمكن لآدم لمجرد أكله من الشجرة أن يتحول من مخلوق من طين إلى مخلوق من نور، ومن الذى سيحوله؟ أهى ثمرة الشجرة التى حرمها الله؟ وهل لديها القدرة على ذلك؟ وهل تستطيع وهى مخلوقة لله أن تقوم بمثل هذا التحويل لطبيعة الأشياء؟ طبعاً مستحيل.

وهكذا يرينا الله سبحانه وتعالى أن الشيطان لا يدخل إلى النفس البشرية إلا مع الغفلة، وإلا مع غياب التفكير الإيمانى السليم، وأن كل ما يعد به الشيطان لو تمعّنا فيه لوجدناه غروراً كاذباً، ولكن مع هذا فإنه باندفاع الناس إلى حب الدنيا ينسون التفكير السليم، وفى طمع بنى آدم فى أن يحصلوا على ما تمليه عليهم أهواؤهم، يندفعون فى طريق يرفضه العقل كما ترفضه الفطرة السليمة.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١].

أقسم الشيطان لهما أنه ناصح أمين لمصالحهما يريد لهما الخير، أقسم الشيطان بمن؟ فقد كفر بالله، وهل يقبل قسم من كافر؟ وهل الكافر له عهد يرجى؟ أو له قسم يصان.

رغم أن آدم وحواء قد حذرهما الله ونهاهما عن الاقتراب من هذه الشجرة، وأباح لهما كل ثمار الجنة، يأكلان منها متى شاءا، وحيثما شاءا، ورغم أن الله قد حذرهما أن الشيطان لهما عدو مبين، وأنه يريد أن يخرجهما من الجنة التى يعيشان فيها، ورغم أن الشيطان قد استخدم حججا فى إغرائه لآدم، وتناول هو وزوجه ثمار الشجرة يأكلان منها ليتحولا إلى ملكين خالدين، ويكون لهما ملك لا ينتهى أبداً.

فماذا حدث بعد ذلك، وأى نتيجة وصلا إليها؟ هل تحولا إلى ملكين فعلاً، هل وصلا إلى الخلود الذى يبحثان عنه، وإلى الملك الذى لا ينتهى أبداً، وإلى النعمة التى لا تزول، أم أنهما أضاعا ما فى أيديهما ووصلا إلى حالة سيئة من الشقاء؟

أقدم آدم وزوجته على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عنها، ورغم كثرة المباح فى الجنة التى كانا يعيشان فيها، وأن المحرم هو شجرة واحدة من مئات أو ألوف الأشجار التى كانت فى الجنة، إلا أن الشيطان استطاع أن يخدعهما ويغرر بهما ويقودهما إلى المعصية، ولابد هنا أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما حرم على آدم وحواء أن يأكلا من هذه الشجرة لم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة، بل قال لهما: لا تقربا هذه الشجرة، ما هو الفرق بين أن يقول الله لا تأكلا ولا تقربا؟ لو أن الله قال لا تأكلا من هذه الشجرة لكان المنهى عنه هو الأكل فقط، ولكان المباح أن يذهبا ويجلسا بجوار الشجرة، ويتأملا ظلالها وأوراقها، وربما تنبعث رائحة جميلة منها فيتمتعان بها، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ معناه لا تقتربا من هذه الشجرة حتى مجرد قرب، ولا تجلسا لتتأملا فيها، بل إذا رأيتماها فابتعدا عنها تماماً، لماذا؟ لأن محارم الله يجب أن يبتعد عنها

الإنسان حتى لا يقع فيها، لأن القرب من الشجرة قد يبدأ بعده إعجاب بالثمار، والإعجاب بالثمار قد يؤدى إلى قطف ثمرة منها لتتأملها بدون أن تأكلها، فإذا وصلت إلى هذه الدرجة فإنك فى الغالب ستقع فى المعصية وتأكل الثمرة، وكذلك ما حرم الله، وكل معصية إذا اقتربت منها فإنك ستقع فيها، الذى لا يشرب الخمر مثلاً إذا جلس مع الذين يشربون كانت الخطوة الأولى أنهم سيدعونه مرة ومرات إلى كأس، أو إلى أن يتذوق قطرة منها، فإذا رفض أخذوا يزينونها له، ويحاولون إغراءه بأن فيها فوائد للناس، ويعيرونه بأنه لم يبلغ مبلغ الرجولة حتى يشرب، وأخيرا سيقع فى المعصية، وشرب الخمر لعلنا فى كل أحداث المعاصى التى نراها بالنسبة للخمر تبدأ بكأس واحدة، وتحت إلحاح شديد، ثم بعد ذلك يبدأ تناول الخمر والإدمان عليها، كذلك كل المعاصى، إذا اقتربت منها فإنك تفتح باب الشيطان فى نفسك، فتقع فى المعصية.

إذن.. فلا تقربا أبلغ وأشد فى الاحتياط من لا تأكلا، ولذلك أراد الله بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ أن يجتنب البشر ذلك القرب الذى يغريهم على المعصية ويفتح فى نفوسهم الباب أمام هوى النفس وإغراء الشيطان ولذلك يلاحظ فى القرآن الكريم أن كل شىء محرم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]. أى: لا تقربوا المعاصى أو مجالسها وابتعدوا عنها.

وإذا تتبعنا تسلسل معصية آدم، وإغراء الشيطان له، نجد أن الشيطان قد بدأ بقوله: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

واستطاع أن يجذب آدم ويقربه من مكان المعصية، وعندما اقترب آدم من الشجرة وقع فى المعصية، وأكل من ثمرها، وبما أن التجربة العملية التى مر بها آدم هى للبشرية كلها، فإن لله سبحانه وتعالى أن يفصلها تفصيلا، حتى يعرف كل إنسان من ذرية آدم كيف تتم المعصية، وما هو الطريق الذى يقود إليها فلا يأتى يوم القيامة مجادلاً بأنه لم يعرف ولم يخبر بذلك مقدماً حتى يحاسب فى الآخرة.

أكل آدم وحواء من الشجرة وعصيا الله، وحينئذ ماذا حدث؟ تحولا إلى ملكين؟ هل حصلا على ملك لا يبلى؟ لم يحدث شىء، يقول الله تعالى:

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١].

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

لما أكل آدم وحواء من الشجرة ظهرت عورتاهما، وأسرعا يأخذان من أوراق الشجر

الموجود في الجنة، ما يخفيان به هذه العورة، فكأنما الشيطان يريد دائماً أن يظهر عورة الإنسان فيغريه أولاً بالشر، ثم يوحي إليه من التصرفات ما يجعل الفضيحة تقع وهو يغريه بالسرقة مثلاً، فمتى اتخذ الإنسان الشيطان ولياً وسمع إغواءه وسرق؛ فإنه يغويه بأحداث تكشف سرقته للناس وتريهم أنه لص، فالشيطان عدو للإنسان، وهو يريد أن يظهر كل سيئة فيه حتى تلك التي سترها الله سبحانه وتعالى، والإنسان إذا تبع الشيطان صار مفضوحاً في كل أمره، وهكذا عرف آدم وحواء أن الشيطان قد كذب عليهما، ووعدهما غروراً، ليكشف عن عوراتهما التي كانت مستورة، وهنا كان الجزاء؛ قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته: ألم أنهكما عن هذه الشجرة؟ ألم أبح لكما من الطيبات ما يكفي حياتكم ويزيد؟ ألم أقل لكما لا تقربا هذه الشجرة؟ لقد كنت أريد لكما الخير، ألم أحذركما من الشيطان إنه لكما عدو مبين؟ كنت أريد لكما الخير وخلقته ويسرته لكما، وكان الشيطان يريد بكما الشر، وأوقعكما في المعصية، فلماذا اتبعتما الشيطان وعصيتما أمر الله؟ ولم يجد آدم وحواء عذراً لما حدث، لقد كان أمامهما الحلال الطيب، واتجها إلى الحرام الخبيث، وكان أمامهما الخير، واتجها إلى الشر، ولكن آدم وحواء قابلا المعصية بطريقة أخرى غير التي قابلها بها الشيطان، فالشيطان: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

فرد الأمر على الآمر، ولكن آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أي: إنك يا رب الإله الحق الذي يعلم كل شيء، ويعلم أين الخير، وأين الشر ونحن يا رب مؤمنون بك إلهاً فأنت لم تظلمنا يا رب وحاشا لله أن يوصف بالظلم ولكننا نحن الذين ظلمنا أنفسنا وأوردناها مورد التهلكة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكن من الخاسرين، أي خسرنا النعم التي سخرتها لنا في الجنة، التي كنا نعيش فيها، وخسرنا الجزاء بالخلود في الجنة في الآخرة.

وفرقٌ بين من يتهم نفسه بأنه ظلمها ويعترف أن أمر الله هو الحق، وأنه لم يقدر على حمل نفسه على الطاعة، وبين من ينكر على الله والعياذ بالله حكم ألوهيته، وهكذا شُرعت الخطيئة والتوبة في الأرض، وفتح الله باب التوبة للإنسان حيث إذا أخطأ يقول: يا رب ظلمت نفسي وعدت إلى الحق فتقبل توبتي، ولذلك فإنك إذا أنكرت حكماً من أحكام الإسلام تقول لك أأنت تنكر أحكام الله؟ فإذا قلت: نعم، فأنت والعياذ بالله كافر إذا لم تُصلِّ مثلاً وسألناك لماذا لا تصلي؟ فقلت: أنا لا أومن بالصلاة ولا أصدقها، وهذه الصلاة ليست عبادة، وليست لها أي حكمة فأنت في هذه الحالة قد كفرت، ولكنك إذا قلت إن الصلاة حق وإن الله سبحانه وتعالى فرضها وأنا مؤمن بها، ولكن لا أستطيع أن

أحمل نفسى عليها، ففى مرات أنسى وفى مرات أتكاسل، فأنت عاص تجب عليك التوبة والرجوع إلى منهج الله.

وعندما نصل إلى هذه النقطة تكون التجربة العملية قد انتهت، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وكرمه وفضله وأباح له من الطيبات ما يحفظ مقومات حياته، ولكن الشيطان جاء ليفسد هذا كله ويقود الإنسان إلى المعصية، وهنا تدخل الضعف البشرى، والطمع البشرى ليجعل الإنسان يخرج عن منهج الله، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وهكذا يكون آدم قد تم إعداده إعداداً عملياً ليمارس مهمته على الأرض، وأنه قد بُيِّنَ له المنهج فى أن الله سبحانه وتعالى سيبيح له أشياء كثيرة ويحرم عليه أشياء قليلة، ثم دخل فى تجربة عملية ظهر فيها أن الشيطان كاذب، وأنه يريد أن يُوقع آدم فى التهلكة، ثم وُجِدَتْ المعصية فعصى ربه، ثم شُرعت التوبة لأن آدم اعترف بأنه ظلم نفسه، وبعد هذا الإعداد العملى الذى مر فيه آدم بتجربة الطاعة والمعصية، نزل إلى الأرض ليمارس مهمته: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف].

نلاحظ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾، مع أن آدم وحواء اثنان فقط ثم يقول: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

فكيف يتم الخطاب لاثنين فى قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾؟

والذين يقولون ذلك لا ينتبهون إلى أن آدم قد خُلق وفى ظهره كل ذريته إلى يوم القيامة، ذلك أن أولاد آدم فيهم من آدم، وأحفاده فيهم من آدم، لأنهم أخذوا من أولاده، وأحفاده وأحفادهم فيهم من آدم، لأنهم أخذوا عن أحفاده الذين أخذوا عنه.

ونوضح ذلك.. لو أتينا بإناء فيه لون أحمر، ثم جئنا بإناء أوسع به ماء ووضعنا فيه هذا اللون، يكون فى السائل الجديد جزيئات من اللون الأحمر، وإن كانت أقل تركيزاً، وإذا جئنا بإناء ضخم هائل مملوء بالماء، ووضعنا فيه السائل المختلط باللون الأحمر يكون فى الإناء الجديد اللون الأحمر فى جزئيات أقل، وهكذا أنت أخذت من أبيك، وأبوك أخذ عن جده، وجده أخذ عن جد جده، ونظل نسلسل هذا حتى نصل إلى آدم، فأنت فيك جزء من آدم، وهكذا كان قول الله سبحانه وتعالى خطاباً للبشرية كلها التى هى ذرية آدم، وحين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

فإنه ينبهنا إلى أن آدم خَلقٌ يمثل أنواعاً من البشر، نوع بنوه معصومون لا يعصون الله، ونوع مؤمن يقع فى الخطأ والخطيئة ويتوب، ونوع يكفر بخالقه، وما دام آدم أباً لكل هذه الأنواع فلابد أن يتمثل فى خَلْقِه وتكوينه الأنواع كلها، النوع المعصوم بالنبوة، والنوع

المؤمن الذى ينسى ويعصى ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام نزواته وشهواته ولكنه يتوب إلى الله، ونوع والعياذ بالله يكفر بخالقه ويعبد الشيطان، وبما أنه سيكون من ذرية آدم النبى، والمؤمن، والكافر. فهؤلاء جميعاً سيقع بينهم صراع، فالإيمان دائماً يُقابل بصراع من الكافرين الذين يريدون أن يحتفظوا بترف الدنيا ويظلموا الناس، ويحاربوا كلمة الحق، وبما أن النزوات والشهوات المختلفة المتعارضة بين الناس، تجعل بعضهم لبعض عدواً فى صراعات الدنيا فكأنما العداوة تأتى من نوعين، عداوة بين الكفر والإيمان، أو الحق والباطل وعداوة بين الكفر والكفر، وهو صراع النزوات والأهواء، ولكن لا توجد عداوة بين الإيمان والإيمان، لأن المؤمنين قد وحد الله هدفهم بمنهج واحد لا يشذون عنه، وجمعهم على الهدى، ولم يجعل فى أنفسهم صراعات الدنيا بنزواتها وأهوائها.

وهكذا كان خطاب الله لآدم على ما سيحدث لآدم وذريته بعد الهبوط إلى الأرض. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

عندما نزل آدم إلى الأرض تلقى صيغة الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى من المعصية التى ارتكبها، وظل آدم نادماً على أنه عصى الله يردد كلمات التوبة، وهى أول صلاة وتضرع لله من الإنسان على الأرض، وهنا تاب الله على آدم؛ أى غفر له خطيئته التى ارتكبها، ولم تصبح هناك خطيئة تحملها البشرية على أكتافها إلى يوم القيامة، لقد تمت التوبة وقبلها الله، وبدأت صفحة جديدة من حياة آدم على الأرض، وهكذا لا يحمل كل منا على كتفيه خطيئة آدم كما يدعى البعض، بل كل منا يحمل خطاياه وأعماله وحده، ولقد ضرب الله فى القرآن عدة أمثلة لذلك واختار سبحانه وتعالى الأنبياء الذين هم قمة الإيمان، فهى بالأولى تُطبق علينا جميعاً، ضرب الله مثلاً بالعم الذى يمثل منزلة الأب فى إبراهيم، وبالابن فى نوح، وبالزوجة فى لوط ونوح، وبالزوج فى امرأة فرعون، والأب والابن والزوج والزوجة هم أقرب الناس بعضهم إلى بعض، ومع ذلك فكفر من هو فى منزلة الأب أو العم بالنسبة لإبراهيم، لم يمس إيمان إبراهيم ومنزلته عند الله، وكفر ابن نوح وامرأته لا يمسان قدر نوح ومنزلته، وكفر امرأة لوط لا يمس منزلة لوط، وكفر فرعون لم يمس إيمان امرأة فرعون، وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا أن أحداً لا يحمل يوم القيامة على كتفيه إلا أوزاره، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا فاطمة بنت محمد، أنا لا أغنى عنك من الله شيئاً، لا يأتينى الناس بأعمالهم يوم القيامة، وتأتون أنتم بأنسابكم»، وفى هذا إيضاحٌ وتأكيد بأن التوبة على آدم قد مَحَتْ معصيته فى التجربة الإيمانية التى مر بها، وأن البداية على الأرض بداية جديدة تماماً.

حينما أمر الله سبحانه وتعالى آدم أن يهبط على الأرض حدد له طريق الإيمان وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة].

وهكذا حدد الله المنهج لآدم وذريته، فقال: إن الهدى سيأتى منى على الأسس نفسها التى حدثت لآدم فى الجنة بأفعل ولا تفعل، سأقول لكم هذا حلال فأفعلوه، وهذا حرام فاجتنبوه، وقد خلقتكم صالحين للطاعة وصالحين للمعصية، وجعلت لكل منكم مقعداً فى الجنة ومقعداً فى النار، فالذى يتبع هدى الله ويعمل بمنهجه يأخذ مقعده فى الجنة، ويرى مقعده فى النار حتى يحس بالفوز العظيم الذى حصل عليه بالإيمان، وكيف نجاه الله من عذاب رهيب، والذى يعصى الله ويكفر به يتبوأ مقعده من النار ويريه الله مقعده فى الجنة، ليعرف كم خسر وكيف أنه خسر خسرانا مبينا، وهكذا أنبأ الله البشرية كلها من أول بدايتها بأنه ستكون هناك رسالات من السماء تحمل هدى الله إلى الإنسان، وإن هذه الرسالات ستأتى لتذكر الإنسان بالمنهج، وتبين له العذاب الذى ينتظره على جريمة المعصية والكفر، والرسالات تأتى عندما تنسى البشرية منهج الله، وتحيد عنه، وتنطلق فى هواها ونزواتها ويضلها الشيطان ويبعدها عن المنهج.

وهكذا اختار الله أولئك الذين يحملون منهجه إلى بنى آدم من البشر من ذرية آدم، لماذا؟ لأن الرسول فى حياته يمثل تطبيقاً عمليا لمنهج الله، ولذلك فهو لا يأتى بالمنهج من الله ليقول: أفعل كذا ولا تفعل كذا، ثم يختفى بعد ذلك، وما دام قد جاء بالنظرية فقد أنهى مهمته، ومن يطبقها يطبقها، ومن لا يطبقها، لا يطبقها، ولكنه جاء بالمنهج وتطبيقه. فهو يأتى بالمنهج ويطبقه على نفسه أولاً، ويكون قدوة لمن يتبعونه وهؤلاء ينقلون القدوة إلى من بعدهم وهكذا، ولكى يكون الرسول مطبقاً للمنهج، فلابد أن يكون بشراً ذلك لأنه لو كان ملكاً، أو فى مرتبة أعلى من البشر لقال الناس: لقد حَمَّلَنا اللَّهُ ما لا نطيق، فهذا مَلَك له قدرات ليست لنا، وهذا رسولٌ له قدرات فوق قدراتنا، ولكن كون الرسول بشراً وكونه جاء وطبق المنهج على نفسه، دليلٌ على أن هذا المنهج فى قدرة البشر، ويستطيعون أن يطبقوه على أنفسهم لأن الرسول له قدراتهم نفسها، فلا يُقبل عذر لأحد بعد ذلك من أن يقول إن منهج الله فوق قدرات البشر.

ثم يوجه الله سبحانه وتعالى قوله للبشرية كلها محذراً من الشيطان ووسوسته، مذكراً بالتجربة التى مر بها آدم فيقول: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أى إن الله سبحانه وتعالى يُذكِّر خلقه بأن العورة التى كشفها إبليس عندما أغرى آدم على المعصية وأوقعه فيها، قد عَلَّم الله الإنسان كيف يرتدى لباساً ليسترها ويداريها، بل إن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن أعطى الإنسان الرفاهية، فلم يعطه الضرورى من الملبس، بل أعطاه الريش أى الرفاهية، وأعطاه فوق ذلك لباس التقوى، أى التقوى تستر عيوب الإنسان وتداريها، وتظهر الطيب منه وتنميه، فالإنسان الذى يلزم التقوى هو إنسان مظهره طيب وخلقه طيب، ولباسه طيب، لأن الملبس الذى أمر به الله للرجل أو المرأة

يغطى كل العورات، ولا يظهر منها شيئاً ويجعل مظهر الإنسان طيباً مقبولاً، والإنسان المؤمن إنما يحاول أن يكبح شهوات الإيذاء والإساءة والضرر للآخرين فى نفسه، فكأن التقوى هى لباس يستر بها كل هذه العيوب التى تسىء إلى الناس، وتجعلهم ينفرون منه. والنفس التى تنشأ فى تقوى الله هى طيبة، تسعى دائماً للخير وتصبر على المكاره، وهى نفس محببة تساعد المحتاج وتنصر المظلوم وتحسن إلى الناس، فالله سبحانه وتعالى صور التقوى على أنها لباس؛ لأنها تستر السيئ وتمنعه من الظهور، وتجعله مختفياً وتتعامل بالقيم ولا تقدم على ما يعيب، ويقول الله إن ذلك خير، أى إن الإنسان المؤمن أو الجماعة المؤمنة هى خير للبشرية كلها، تنشر الخير أينما وُجدَتْ، وتمنع الشر كلما استطاعت، وذلك من آيات الله سبحانه وتعالى أن جعل الإيمان بهذه الصورة الجميلة ليتذكر الناس كيف أن الإيمان ينشر الخير، وينشئ المجتمع المستقر المنسجم مع نفسه، ومع الكون كله، فإذا تذكر الناس ذلك انضموا إلى مواكب الإيمان التى فيها صلاح البشرية كلها.

ويوجه الله سبحانه وتعالى تحذيره إلى البشرية كلها: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يوجه الله تحذيره للبشرية كلها، لأن الشيطان الذى أمهله الله إلى يوم القيامة سيواصل عداوته للإنسان، وسيحاول أن يخرجه من الجنة كما أخرج أبويه آدم وحواء، وسيتم ذلك بطريق الفتنة والإغواء، يريد الله أن يلفتنا إلى أن الشيطان سيحاول أن يفتننا بالزيف عن الحقيقة.. كيف ذلك؟

إن منهج الله يوجهنا إلى النفع الحقيقى فى الحياة الدنيا والآخرة، ولنضرب مثلاً يُقرب ذلك للأذهان، هب أننى أملك مزرعة للقمح جاءت بمحصول عشرة أرادب، أنا أولاً أبقى من هذه الأرادب العشرة أردبين لأزرعهما فى الموسم القادم، ثم أتصرف فى الباقى، ما أبقيته هذا أنقصته من انتفاعى العاجل به فقد كنت أستطيع أن أبيعه وأستفيد بثمنه، وكنت أستطيع أن آكله وأستفيد منه، ولكن لو فعلت ذلك أكون قد فعلت الصواب أو الخطأ، لو أننى بعت الأردبين أو أكلتهما أكون قد فعلت الخطأ رغم أننى حققت نفعاً عاجلاً، ذلك أنه سيأتى الموسم القادم وليس لدى بذرة، وبضيع كل شىء، وبذلك لا أجد ما آكله ولا ما أبيعه وأجد نفسى فى ضيق.

والإنسان يريد النفع لنفسه، وكل إنسان يريد النفع لنفسه، ولكن هناك من يتعجل النفع مثل ذلك الذى باع بذرة الموسم القادم أو أكلها، وهناك من يعرف أين النفع، مثل ذلك الذى أبقى هذه البذرة وكلنا يقيناً نعرف أن هذه الحياة ستنتهى، ولم يخلد إنسان واحد حتى الأنبياء، لن يفلت إنسان واحد من الموت، والله سبحانه وتعالى قد وعدنا بأن يمتعنا فى الآخرة التى هى دار الخلود، وسيكون التمتع فيها على قدرة الله سبحانه

وتعالى، أى فوق قدرة البشر مجتمعين، ولقد كُنْتُ فى شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأراد بعض الناس أن يبهروني، فأنزلوني فى أحدث الفنادق التى تتم فيها الخدمة بالعقول الإلكترونية والتى تفنن المهندسون فى وضع لمسات الجمال والمتعة والرفاهية فيها، قالوا: ما رأيك فى هذا التقدم؟ قلت: إذا كانت هذه الرفاهية والمتعة قد استطاع الإنسان أن يوفرها للإنسان بعلمه المحدود، فكيف المتعة فى الآخرة التى يوفرها الله بعلمه وقدرته التى هى بلا حدود لعبده المؤمن، ولذلك فإننا يجب أن نعتبر أن الحياة الدنيا وما يضع الإيمان فيها من قيود على هوى النفس هى مقدمات للجنة، وما يعطى فيها من نعيم على حسب قدرات الله سبحانه وتعالى.

والعجيب أننا نرى الأب يلاحق ابنه سنوات طويلة، يسهر ويتعب ويشقى فى المذاكرة، ويظل يلاحقه ليل نهار، فإذا سألته لماذا يفعل ذلك؟ قال لأضمن مستقبله، مع ذلك فإنه لا يطلب منه مرة واحدة أن يصلى، ولا يعاتبه على تركه الصلاة، بينما التعب فى المذاكرة مبنى على ظن، فقد يأتى للتلميذ أجله قبل أن يحصل على شهادته، وقد يحصل على الشهادة، ثم يخيب فى الحياة الدنيا، ولا يحصل على شيء، فى حين أن الإيمان جزاؤه مضمون لأنه فى الآخرة، ولا أحد لا يصل إلى الآخرة، ولقد وضع الله سبحانه وتعالى فى كل قوانينه أن تُقدم العمل أولاً، ثم بعد ذلك تحصل على الثمرة، فالتلميذ لابد أن يتعلم ليحصل على شهادة، والصانع يشقى ويتعب ليأخذ الأجر، ولكننا نرفض أن نتعامل مع الله بالقوانين نفسها التى نتعامل بها فى الدنيا، فلا نقدم العمل الصالح حتى ندخل الجنة.

ولذلك فإن مهمة الشيطان فى إفساد منهج الله، أن يفتنك بالعاجل عن القادم، فأنت تريد مالاً لمتاع فى الدنيا، وتنسى وأنت تسرق هذا المال أنك تضيع المتاع الأكبر فى الآخرة وأنت لك شهوات فى الدنيا، وتنسى أنك إذا راعيت الله فيها أعطاها لك أكثر فى الآخرة ومهمة الشيطان هى أن يجعلك تستغنى بالشئ العاجل الذى له نفع ظاهرى عن النعيم الحقيقى الذى أعده الله لك، فأنت مهما ملكت فى الدنيا فأجلك محدود وقدرة تمتعك محدودة، فإذا أنهكتها أتتك بعكس النتيجة، فالذى يسرف فى الطعام يمرض ويحرمه الأطباء من الأكل، والذى يسرف فى الشهوات يضعف وينهار ويحرم منها، والذى يسرف فى السهر فى معصية الله يأتى عليه الوقت الذى لابد أن يختار بين أن ينام مبكرا أو ينام فى فراشه لا يقدر على الحركة، ولكن قصر نظر الإنسان يجعله لا يُقدر هذا كله، ولذلك يحذرنا الله من هذه الفتنة، فالشيطان من مهامه فى الحياة أن يُدخل الخوف إلى النفس البشرية فيجعلها تعبده، والإيمان مهمته أن يدخل الشجاعة والطمأنينة إلى النفس البشرية، ويجعلها تعبد الله، وإذا جاءت قضية حق ضد صاحب النفوذ حاول الشيطان أن يدخل الخوف إلى نفسك، ويقول لك إيّاك أن تقول كلمة الحق، اكذب ونافق واشهد

الزور، لأنك إذا قلت الحق فإن صاحب النفوذ هذا سيفسرك ويقضى عليك، فى حين أن الإيمان يقول لك: قل كلمة الحق ترضِ الله، والله يحفظك فهو أكبر وأقوى من كل صاحب نفوذ، ولذلك إذا دخل الخوف من زوال الدنيا فى نفسك، دخل معه الشيطان فأخذك بعيداً عن منهج الإيمان، وبدلاً من أن يكون لك إله واحد وهو الله، أصبح لك آلهة متعددة، فأنت تريد أن ترضى هذا، وترضى هذا، وترضى هذا كذباً وزوراً، وفى النهاية تجد أنك خسرت الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من فتنة الشيطان، إنه يريد أن يخرجنا من جنة الإيمان فى الدنيا، وما هى جنة الإيمان فى الدنيا؟ هى الانسجام مع الكون وعبادة الله وحده، فالذى يعبد الله يعيش عيشة راضية داخل نفسه، انظر إلى أى إنسان يفعل أمراً حلالاً إنه يقف أمام الدنيا كلها ويفعله، ضميره مستريح تملأ الراحة نفسه، وانظر إلى إنسان يرتكب إثماً تجده يتلفت حوله، ويحرص على ألا يراه أحد، ويخاف إذا طرق طارق الباب، إذا كنت أنت وزوجتك فى المنزل وجاءت الدنيا كلها فأنت تستقبلها بنفس مستريحة، وإذا كنت أنت وامرأة أخرى زوجة غيرك مثلاً وطُرِقَ الباب، ماذا سيحدث لك؟ إذا كنت تمسك فى يدك بمالٍ حلال وعرف الناس، فلا يهمك شىء، وإذا كان المال حراماً تحاول أن تخفيه، وتنفقه سرا، وتشقى فى إخفائه حتى لا يسألك أحد من أين جئت بهذا المال، فتضعه باسم ابنك، أو باسم زوجتك، أو باسم صديق لك، وقد يأخذه ويبدده فلا تستطيع أن تفعل شيئا.

إذن.. فالمؤمن يعيش فى جنة الإيمان؛ لأن ما يفعله كله حلال، وهو لا يتعرض لفضيحة أبداً ما دام يتبع منهج الله، والذى يتبع الشيطان يعيش فى شقاء الخوف من أن ينكشف أمره، أو تظهر سوءاته للناس فيعرف الناس الحقيقة، وحينئذ تكون عوراته قد انكشفت، فليست العورة فى الجسد فقط، ولكنها فى الخلق وفى التصرفات وفى كل عمل لا يرضى الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أى إن الشيطان فى عداوته الرهيبة للإنسان يتبع كل خطواته وهو يرى الإنسان، يراه حين يسرق بعد أن زين له السرقة، ويراه حين يزنى بعد أن زين له المعصية، وهو بذلك يعلم عن الإنسان أفعاله، ويستطيع أن يستخدمها فى الإيقاع بين البشر بعضهم البعض، وإثارة الفتن بينهم والعداوة والبغضاء، ولذلك لا تجعلوا للشيطان سلطانا عليكم بارتكابكم المعاصى، لأن الإنسان المؤمن ليس للشيطان سلطان عليه، وكل ما يفعله لا يشين، وكل ما يقوم به لا يحرص على إخفائه، ولذلك لا يجد الشيطان وسيلة للإيقاع بينه وبين الناس إلا أن يسلط عليه شياطين الإنس، فيؤذوه ويتهموه بالباطل، وفى تلك الحالة يأتى الاتهام بعكس النتيجة، لأن الباطل لا يقف أمام الحق.

والله سبحانه وتعالى قد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، أى إن كل من استغنى عن الإيمان استغنى الله عنه، والله كما قلنا ليس محتاجاً لأحد من عباده، ومتى ابتعد الإنسان عن الله فإن الشيطان يصبح وليه الذى يوحى إليه بما يفعل، وهكذا يضيع هذا الإنسان لأنه ملك عدوه منه، وأنت إذا ملكك عدوك هلكت وعداوة الشيطان للإنسان مريرة، فهو يريد أن يكون مصير كل بنى آدم النار حتى لا يلقى هو وذريته وحده فى جهنم ويتميز بنو آدم بالنعيم.

يـــوم القيـــامـة

موضوع هذا الجزء من الكتاب والأجزاء القادمة من «المعجزة الخالدة معجزة القرآن» سيكون عن يوم القيامة، وقد يتساءل القارئ: لماذا اخترنا بالذات موضوع يوم القيامة، مع أنه يدخل فى عالم الغيب، نقول: إن الأساس فى الإيمان هو الإيمان بالآخرة، وبأن هناك حساباً، وبأن الله سبحانه وتعالى سيستدعينا يوم القيامة يحاسبنا عما فعلناه فى الدنيا، والدنيا هى دار الاختبار والآخرة هى دار الجزاء، والذين يوقنون أنهم سيلاقون الله يوم القيامة يَحْسِبُون لذلك اليوم ألف حساب، ولو أن كل إنسان تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا، ذلك لأن كلا منا سيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى، ولكن الناس نسوا يوم الحساب، وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهى أنفسهم، ويرتكبون المُحَرَّمات، ويعتدون على المحرمات، ويأخذون المال الحرام ناسين أو متناسين أن هناك يوماً قادماً رهيباً يجعلُ الولدان شيبا.

ولعل هذه الصفحات من هذا الكتاب، تكون تذكرة لهؤلاء ولعلهم أيضا إذا قرأوا استيقظت الضمائر وأحس الناس بهول ما يفعلون.

هذه مقدمة قصيرة كان لابد منها لإيضاح الهدف الذى نسعى إليه، ذلك أن أمور الغيب دائماً هى الباب الذى يدخل منه الشيطان، سواء كان من شياطين الإنس، أو من شياطين الجن، يدخل منه إلى النفوس الضعيفة، لماذا؟ لأننا لا نرى الغيب، وما دمنا لا نراه فهو محجوب عنا، ذلك أن الإيمان أساساً هو إيمان بالغيب، أو إيمان بما هو غيب، ذلك أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل إنك تؤمن به لأنك تراه رأى العين رؤية يقين، والإيمان ليس مطلوبا فى الحسيات والمشاهدات، ولكنه مطلوب فى الغيب، فيما هو غيب عنا.

ولقد أوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الإيمان فى بداية كتابه الكريم، وفى أول سورة البقرة إذ يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة]

إذن.. فالإيمان بالغيب واليقين باليوم الآخر هما من أهم علامات الإيمان، ذلك أن اليقين بالآخرة قضية هامة جدا، تحكم السلوك الإنسانى فى الدنيا، وتردع كل من تسول له نفسه أن يغتر بسلطان أو بقوة أو بنفوذ، فيطلق لنفسه شهواتها، ويعتدى على حقوق الناس من دون أن يكون هناك وازع، ولكنه إذا عرف يقيناً أنه سيقف بين يدى الله، فإن ذلك

سيكون رادعاً قويا لشهوات نفسه ولظلم غيره، فأنت تخشى الله سبحانه وتعالى إذا كنت تؤمن بالآخرة، فإذا مددت يدك لتسرق فتذكرت أنك ستلقى الله، وأنه سيحاسبك: امتنعت عن السرقة، وإذا أردت أن تأكل حقوق الناس بالباطل وتذكرت أنك ستلاقى الله ارتعدت نفسك وابتعدت عن ظلم الناس، وأكل حقوقهم.

وهكذا كل شيء فى الدنيا ما دمت على يقين بأنك ستلاقى الله يوم القيامة، فإنك تتبع السلوك الإيمانى، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً فى رضاه وجنته.

وهناك علم اليقين، وعين يقين، العلم الذى نأخذه عن الله سبحانه وتعالى لابد أن يكون علم يقين لأنه صادر عن الله، وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فالمؤمن يوقن أن ذلك سيحدث حتماً، وكأنه يراه أمامه، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر].

فإذا كانت عين اليقين هى المشاهدة كما سيحدث فى الآخرة عندما نرى جهنم، فإنه لابد أن يكون فى قلوبنا علم اليقين، لأنه مادام الله تعالى قد قال فهى موجودة كأننا نراها.

وأساس السلوك البشرى فى الدنيا هو الإيمان باليوم الآخر، فإذا لم يكن إيمانك بهذا اليوم إيمان يقين، أى لا يدخل إليه الشك أبداً تكون قد اهتززت ويستطيع هنا أى شيطان أن يدخل إلى قلبك ليوهمك أن كل حديث عن الغيب هو غير صحيح، أو غير واقع، وحينئذ يتغير السلوك الإيمانى كله.

فمادام ليس هناك حساب فمن تخشى؟ وممن تخاف؟ ومن الذى يرفع يدك عن ضعيف تغتصب حقه إلا إيمانك بالآخرة والحساب، ومن الذى يَقِفك عن أن تأكل أموال الناس بالباطل، وتبغى فى الأرض، وتغرك قوتك، من الذى يقول لك: قف مكانك، هو الإيمان بالآخرة. لأنك فى هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله مكتوب عليك، وأنك إذا كنت قويًا جباراً فى الأرض فستكون ضعيفاً ذليلاً فى الآخرة، لا ناصر لك، ولا معين أمام الله.

إذن.. لولا الإيمان لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش، الضعيف يفتك بالقوى، ويعتدى القادر على غير القادر، ويضيع الحق. والعجيب أن المؤمن والكافر يخشيان الآخرة، ولعل التساؤل كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة أن يخشاها.

الكافر حقيقة لا يؤمن بالآخرة، ولكن الموت الذى يراه كل يوم فى حياة غيره يملأ حياته هو بالرعب والفزع، وينغص عليه عيشته، وهو يرى الموت كل يوم فى حياة ألوف غيره، بل فى حياة أقرب الناس إليه، والسؤال يلح عليه دائماً: إلى أين؟ إلى أين؟ يحاول أن يأتى بالدليل تلو الدليل ولو زيفاً ولو تضليلاً يحاول أن يقنع نفسه أن لا شيء بعد الموت، حتى يستطيع بهذه الفرية أن يهون على نفسه ارتكاب المعاصى، وهو يبرر لنفسه

دائماً ما يفعله؛ السارق يقنع نفسه بأنه يأخذ حقه من المجتمع بيده، والمعتدى على حقوق الآخرين يبرر ذلك بأن هذا هو حقه، والمهم أن الإيمان الفطرى فى كل نفس يؤرق صاحبها، ويحاول أن يجد تبريرا لكل المعاصى التى ارتكبها، ما من حاكم ظالم إلا أقنع نفسه بأنه مصلح اجتماعى، وما من آخذ للمال الحرام إلا زين لنفسه أن هذا جهده وماله.

نبدأ بعد ذلك فى بيان منهج الحياة، وكيف أن الله سبحانه تعالى أعد هذا المنهج لإسعاد البشر فى الأرض، وكيف أن البشر أفسدوه بأهوائهم ومخاوفهم ممن هم دون الله، الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال قدرته وحده، فلا أحد يستطيع أن يقول أو يدعى مهما بلغ من القدرة والقوة أنه شارك الله سبحانه وتعالى فى الخلق، فقضية الخلق بالنسبة لله وحده هى قضية محسومة لا جدال فيها، فالله خلق السماوات والأرض، والجبال والبحار والأنهار، والنبات والحيوان والإنسان، والجن والملائكة، والله أخبرنا أنه هو الذى خلق ولم يستطع ولن يستطيع أى ممن خلق الله أن يدعى أنه خلق هذا الكون، ومن هنا فالقضية محسومة لله سبحانه وتعالى وحده.

وسخر الله سبحانه وتعالى كل ما فى الكون لخدمة الإنسان، فالشمس تشرق لتحفظ الحياة فى الكون، وهى أقوى من الإنسان ملايين المرات، ولو اقتربت من الكون بضعة كيلو مترات لاحترق الكون كله، ولو ابتعدت عن الكون بضعة كيلو مترات لتجمد الكون كله، ولكنها مسخرة من الله سبحانه وتعالى لتخدم الإنسان، والرياح تعطى الإنسان الهواء اللازم لحياته، ولو ذهبت ما بقيت الحياة، ولو استخدمت قوتها لدمرت الكون كله، كذلك البحار تستطيع أن تغرق الأرض فى ثوان معدودة، ولكنها مسخرة لخدمة الإنسان.

إذن.. كل قوى الكون، بما فيها من جماد ونبات وحيوان، مسخرة لخدمة الإنسان، وهذا التسخير ليس ذاتيًا، لأن الشمس لا تستطيع أن تقول أنا سأشرق اليوم وأحتجب غدا لأنها مسخرة بأمر ربها لا تملك الاختيار.

كل جنس من أجناس الكون هو مخلوق من الله سبحانه وتعالى، بذاتية معينة، وقوانين محددة، وفيه التقاءات، ولكن لا يستطيع أى جنس أن يرتقى إلى صفات الجنس الآخر، وإنما يقف عند حدود هذه الصفات، فالجماد آخر ارتقاءاته هو النمو. وهذه أولى خصائص النبات، فتجد الشعب المرجانية لها خاصية النمو، ولكنها تقف عند ذلك ولا تصل إلى خاصية التنفس مثلاً الموجودة فى النبات، فالنبات له خاصية النمو والتنفس وإعطاء الثمار، ويصل إلى أول مرتبة من مراتب الحيوان وهى الحس، فتجد عدداً من النباتات إذا لمستها انفعلت لك - كالست المستحيّة - كما يطلقون عليها إذا لمستها ضمت أوراقها، وبعض النباتات النادرة فى الغابات الاستوائية إذا لمسها الإنسان أمسكت به، ولكنها لا تستطيع أن ترقى إلى خاصية الحيوان وهى الحركة التى هى أولى مراتب الحيوان، والحيوان يملك الحركة والحس، وله خواصه.

وأعلى مراتب الحيوان هى القردة، أولئك أقرب الأجناس الحيوانية إلى الإنسان، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى مرتبة العقل، فلم نسمع عن مجموعة من القردة عقدت اجتماعاً لتبحث كيف ترتقى بحياتها، ولم نسمع عن أى نوع من الحيوان يستطيع أن يرث الحضارة عن بنى جنسه، ويرتقى بها ليصنع التقدم فى حياته، قد يستطيع الإنسان أن يدرب حيواناً على عدد من الأعمال، ولكن هذا تدريب فردى بموهبة الإنسان، فلا يستطيع قرد مدرب أن يدرب ابنه، ولا يولد قرد مدرب يرث صفات أبيه التى اكتسبها بالتدريب.

والإنسان هو خليفة الله فى الأرض، أعطاه العقل ليميز بين الأشياء، ويرث الحضارات، ويبدأ كل جيل بما انتهى إليه الجيل الذى قبله ويضيف إليه، والعقل البشرى يستطيع أن يرث الحضارة ويبدأ من حيث انتهى الذين سبقوه، ويضيف إليها وهذه ميزة الإنسان وحده.

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وسخر له هذا الكون كله، وجعل فى الكون آيات بينات يستطيع العقل البشرى أن يصل إليها بسهولة، فكل ما فى الكون من خلق وإعجاز هو آية من آيات الله تلفتنا إلى عظمة الخالق وقدرته.

ونحن حين نتدبر هذا الكون بنظامه الدقيق الذى لا يختل ثانية واحدة، وبعظمة الخلق فيه وبالنعم التى تملؤه، نجد أننا نصل إلى حقيقة هامة وهى أنه لابد أن يكون لهذا الكون خالق وقوة هائلة خارقة معجزة هى التى صنعت لنا كل هذا، فنحن لم نصنعه لأنفسنا. حين نتدبر فى خلقنا، وفى الجسد البشرى الذى تعمل معظم أعضائه بدون إرادتنا وبدون سيطرتنا عليها، وبدون حتى إحساسنا بعملها، نحس أنه لابد أنها تعمل بإرادة خالقنا.. فالقلب يدق، ونحن لا ندرى به، وهو غير خاضع لنا، فالقلب ينبض بدون إرادتنا وبدون أن نحس به، ولا نستطيع أن نقول له: توقف عن النبض فيتوقف، ولا أن نعطيه ساعات لا ينبض فيها ليستريح، والرئتان تقومان بعملهما بما فيه تنقية الدم، وإخراج الهواء الفاسد، واستقبال الهواء النقى، ونحن لا ندرى عن هذا شيئاً، ولا نستطيع أن نصدر أمرا إلى الهواء بألا يدخل، أو إلى الرئتين لتتوقفا عن العمل، بل إننا حينما نتوصل إلى المعلومات الدقيقة عما يحدث فى الرئتين نذهل مما يحدث فى أجسادنا، ونحن لا ندرى وكذلك المعدة والكبد والأمعاء، كلها تؤدى وظائفها بدون تدخل منا، أو خضوع لإرادتنا.

والحواس عندنا تقول لنا: هذا حلو المذاق، وهذا مر وهذا بارد وهذا حار، وتؤدى ملايين المهمات بدون أن نعرف عنها شيئاً، وإن كنا نستفيد بها.

بل إن الأشياء الظاهرة التى تخضع لقدرتنا هى مسخرة من الله سبحانه وتعالى، فالقدم تمشى بأمر صاحبها ظاهريا، ولكنها فى الحقيقة تتحرك بأمر الله، ولو كان تحركها من ذاتنا ما وجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشى، لأنه مشلول، والعين تبصر بأمر الله،

وإن كانت تخضع لنا ظاهريا ولو كانت تبصر بقوة ذاتية منا ما وجد من له عينان ولا يبصر، وكذلك كل الحواس الأخرى.

إذن . . فنحن نستخدم عقولنا لتوصلنا إلى أن لهذا الكون ولنا ربا خالقاً أوجد كل هذه النعم وأوجدنا، ولكن هذه العقول لا تقول لنا شيئاً عن الخالق، ولا ما هو اسمه، ولا ماذا نفعل لنشكره على نعمه علينا، ولا ما هي مراداته منا، ومن هنا كان لابد لكي يكتمل المنهج، أن يرسل الله سبحانه وتعالى الرسل ليبينوا لنا ماذا يريد الله منا، وكيف نشكره على نعمه؟ ولذلك جاءت الرسل مبلغة عن الله لتقول لنا: إن خالق هذا الكون هو الله، وإنه قد أعد لنا جنة عرضها السماوات والأرض، ينعم فيها من أطاعه، وناراً يعذب فيها من عصاه، وإن الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً للإنسان في الحياة، وهذا هو المنهج.

ولم يكن الله سبحانه وتعالى، رحمة بنا، ليضع لنا المنهج، ثم يتركنا لنطبقه كلٌ حسبما يرى، ونفسره كلٌ على قدر اجتهاداته؛ ولذلك اختار رسله من البشر من جنسنا حتى لا نقول: يا رب إن هذا المنهج يعجز عنه البشر، فلو أن الله أرسل ملكاً رسولاً، أو خلقاً من غير جنس الإنسان، لقلنا: يا رب لا نستطيع لأن هذا الرسول ليس من جنسنا إنه يملك قدرات أكبر، ولكن كون الرسول بشراً، أعطانا التطبيق العملي لمنهج الله بقدرة البشر، تطبيق الرسالة محروس بمنهج السماء، يرينا كيف يريد الله سبحانه وتعالى أن يطبق منهجه في الأرض، وحتى يكون التطبيق أمامنا عمليا.

ولقد أوكل الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يحافظ على المنهج، ولكن الناس حَرَّفُوا منهج الله فأدخلوا فيه أشياء لم يطلبها، ولكنها تخدم أهواءهم البشرية، وحرفوه وأضافوا إليه، لذلك جاء القرآن الكريم - منهج الله وخاتم الرسالات - ليكون محفوظاً بقدرة الله، لا بقدرة البشر فلا يدخل إلى القرآن تغيير أو تبديل بشري ولا ينسى منه حرف، ولا يضاف إليه حرف بل يبقى خالدا إلى يوم القيامة.

ماذا أراد الله سبحانه وتعالى بالمنهج؟ أراد أن يحكم به أهواء النفس، فكل ما ليس فيه هوى بشري تركه الله سبحانه وتعالى ليستنبطه الإنسان من الكون بدون أن يتدخل فيه منهج الله بأفعل ولا تفعل، فالعلوم الصماء التي مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية، فهذه لا خلاف عليها بين البشر، فعلوم الكيمياء مثلاً أو الطبيعة أو الفلك أو غيرها، نجد العالم كله فيها يتعاون مع بعضه البعض، بل إن كل دولة تحاول أن تتجسس على الدولة المتقدمة في العلوم لتأخذ منها، والجميع يتنافس في الوصول إلى أكبر درجات العلم المادي وهنا لا تتدخل الأهواء، لأنه ما دامت التجارب معملية، فإن الأهواء لا يمكن أن تتدخل فيها.

ولكن هناك أمور الحياة، والتي يتدخل فيها هوى النفس، فبينما مثلاً نرى أمريكا والاتحاد السوفيتي يتسابقان إلى نقل العلوم عن بعضهما البعض، نجد أننا إذا وصلنا إلى

نظريات الحكم فكل دولة منهما تحاول أن تمنع نظريات الدولة الأخرى من الوصول إليها، فأمريكا إذا وجدت فكراً شيوعيا قاومته ووضعت من يعتنقونه فى السجون، وربما حكمت عليهم بالموت، والاتحاد السوفيتى إذا وجد من يدعو إلى النظام الرأسمالى شنقوه ! وهكذا نجد أن الصراع فى الدنيا ليس على الحقائق العلمية، فكل دولة تعطى علماءها الحرية كاملة مهما كانوا ليسعوا لكشف آيات الله فى الكون، ولكن عندما يدخل هوى النفس، يبدأ الصراع البشرى حتى بين أبناء الوطن الواحد، وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة، وتقوم الحروب الأهلية، ويقتل الناس بعضهم البعض، ويحدث الفساد فى الأرض، من قتل وتخريب وتدمير، وكم صراعات تدور الآن فى دول العالم كله بين أهواء الإنسان، وكم من حروب أهلية تشتعل بين اليسار واليمين، وبين الشيوعية والرأسمالية، وبين الأهواء التى يريد كل إنسان أن يحققها ليسود ويحكم كل هذه الصراعات التى تدمر ولا تعمر، والتى تريد أن تحقق ذاتيا لعدد من الأشخاص على حساب غيرهم، هى آفة الشقاء فى الدنيا.

ولذلك جاء منهج الله يحمى الحق، ويعطى كل إنسان حقوقه بلا تمييز، الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يضع منهجاً عادلاً بين خلقه جميعاً فهو خالقهم، وهم جميعاً عبيد له، وهو سبحانه وتعالى لا يحابى أحدا على أحد، ولا يميز شخصاً على شخص، لأنهم جميعاً أمامه خلق متساوون، وهو لا يطمع فيما فى أيدى أى منهم، فهو لا يطمع فى مال أحد، لأنه لا يحتاج إلى المال، ولا يطمع فى قوة أحد، لأنه هو القوى العزيز، ولا يطمع فيما يملكه أحد، لأنه هو خالق هذا الكون وموجد كل هذه النعم يعطيها لمن يشاء وينزعها ممن يشاء.

والإنسان حين يضع منهجاً إنما يضعه لخدمة مصالحه، الرأسمالى يضع المنهج الذى يخدم حقوق أصحاب الأموال ويعطيهم وحدهم الميزات، والشيوعى يضع ما يخدم اللجنة المركزية ويعطيها كل السلطات، والدكتاتور يضع منهجاً يعطيه وحده كل الحقوق ولا حق لغيره، ولكن الله سبحانه وتعالى يضع المنهج الذى يحقق العدالة بين الناس جميعاً، لأنه غنى عن كل خلقه.

إذن.. فمنهج السماء هو الذى يحقق العدل على الأرض ولا شىء غيره، وكل ما يقال عن فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن نشاطات الحياة مرفوض، لأن كل هذه النشاطات بما فيها الحكم تدخل فيها الأهواء، ويظلم فيها الناس وتحدث منها الصراعات، ولذلك فإنه لابد أن يحكمها قانون إلهى هو فوق هذه الصراعات كلها، يحمى حق الضعيف قبل القوى، ويحفظ حق المظلوم قبل الظالم، ويضع قواعد العدل بين الناس.

وحتى لا تقتل الصراعات البشر على مطامع الدنيا وأهوائها، بَيَّن الله سبحانه وتعالى أن هذه الحياة الدنيا هى حياة مؤقتة مهما طال فيها العمر، فإنه قصير ومهما امتدت

فيها الأيام فإنه لابد لها من نهاية، وطلب الله منا ألا نجعل هوى النفس وشهوة النفوذ وسلطان المال وحب التملك يقضى علينا ويهلك الناس، ويهلك الزرع، ويهلك الخير؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وهنا قد يتساءل بعض الناس عن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ والرسول يدعو للآخرة والجنة، فهل هذه الدنيا ليست هى الحياة؟ نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد للإنسان الحياة الخالدة فى جنة النعيم ولا يريده أن يتخذ من الدنيا هدفاً، لأن الحياة الدنيا تقوم على الأسباب، ولذلك يعانى فيها الإنسان، فى حين أن الحياة الآخرة نعيم مباشر من الله سبحانه وتعالى بلا أسباب، والحياة الدنيا قصيرة زائلة، وهى امتحان للإنسان واختبار لطاعته لله سبحانه وتعالى؛ لذلك لا يريد الله سبحانه وتعالى من خلقه أن يكون هدفهم هو الحياة الدنيا، وأن ينسوا الآخرة، والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن كل ما فى الدنيا زائل، وأن الإنسان مهما علا فيها ومهما بلغ، فهو إما أن تزول عنه النعمة وتنزع منه، وإما أن يزول هو عن النعمة بالموت، ولذلك فإن الحياة الحقيقية التى فيها الخلود والتى فيها النعيم الدائم، هى الحياة الآخرة التى لابد أن نلتفت إليها، لأنها هى الحياة الحقيقية التى لا تزول، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولذلك يريد الله أن يلفتنا إلى حياتنا الحقيقية، وليس إلى الحياة المؤقتة التى نعيشها فى الدنيا، فإذا طبقنا منهج الله فى الدنيا، حصلنا على الحياة المليئة بنعم الله فى الآخرة، وليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نترك الحياة الدنيا للكافرين، إن هذا خطأ كبير يقع فيه عدد من الناس، والذى حدث فى الفترة الأخيرة أن المسلمين تركوا الأخذ بأسباب الدنيا، والعمل على اكتشاف آيات الله فى الأرض، وركنوا إلى عدم العمل وإلى خلافات ونزاعات لا تفيد ولا تجدى، وأقصى أمنية للكافر أن يترك المؤمنون شؤون الدنيا والعمل فيها، ويقتصروا على العبادات فقط، وتزول عنهم قوتهم ولا تعطيهم الأسباب، ويصبحوا فقراء أذلاء ضعفاء لا يقدرون على حماية أنفسهم، ولا يحققون من القوة والقدرة ما يجعلهم يسودون الأرض.

وإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخطأنا فى فهم الإسلام، ذلك أن الإسلام يسيطر على حركة الحياة كلها فى البيت، والمصنع، والطريق، والعمل، وتأملوا قول الله تعالى فى سورة الجمعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة].

ويلاحظ فى هذه الآية أن الأمر بالسعى فى الأرض مساو تماماً للأمر بالعبادة، فلا

يترك المسلمون السعى ويدعوا أن الله قد أمر بالعبادة فقط، فمنهج الإسلام يطالبنا أن نأخذ بالأسباب، ونجتهد فى العمل، ونسعى فى الأرض بالقوة نفسها التى نأخذ بها العبادات.

ولقد جاء التشكيك فى الدين الإسلامى فى الفترة الأخيرة من أن المسلمين، تركوا السعى فى الأرض فتأخروا وتخلفوا، ثم بدأوا بعد ذلك يتساءلون: ما هو السبب؟ وهنا برز الكافر فى محاولة لإقناع الشباب المسلم بأن سبب تخلفهم يكمن فى الدين الإسلامى؟ وبدأ بعض الشباب يستمعون إليهم.

ولقد ساد الإسلام الأرض ألف سنة، كانت فيها الأمة الإسلامية هى منارة التقدم والعلم والحضارة، حتى حينما أهدى هارون الرشيد ساعة تعمل بالمياه إلى ملك فرنسا، اعتقد علماء فرنسا أن هناك شيطاناً داخل الساعة يحركها.

وإذا كان الدين الإسلامى يطالبنا بالعمل من أجل الآخرة، فليست الصلاة وحدها هى العمل من أجل الآخرة، ولكن السعى فى الأرض هو عمل من أجل الآخرة وهو جهاد فى سبيل الله، والعمل فى الإسلام عبادة، وسعى الإنسان على رزقه ورزق أولاده هو نوع من الجهاد حث عليه الإسلام، بل إن الله أمرنا بأن نتحرك فى الأرض ليس على قدر ما نحتاج فقط، ولكن بما يزيد عن حاجتنا، وذلك حتى تتسع حركتنا للفقير والمحتاج والضعيف الذى لا يقدر على الكسب، والصغير الذى يحتاج لمن يعوله، ولذلك فرضت الزكاة؛ ولذلك حث القرآن على الصدقة والإنفاق حتى لا يوجد فى المجتمع الإسلامى فقير ولا عاجز عن الكسب إلا ويأتيه من عمل غيره ما يكفيه، وبهذه الطريقة عالج الإسلام الفقر.

لذلك يجب ألا نأخذ الدين على أنه فى المسجد فقط، أو أنه صلاة فقط، لأن الدين الإسلامى يشمل حركة الحياة كلها.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أى: اعلموا أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يحول بينكم وبين ما تشتهيه قلوبكم؛ إذا اتخذتم طريق المعصية سبيلاً، فلا تعتقدوا أنكم بمعصية الله تستطيعون أن تصلوا إلى ما تريدون، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحول بينكم وبين ما تريدون فلا تحققوا شيئاً مما تتمنون، وتكون النتيجة أنكم خسرتم الدنيا والآخرة، ولعل هذا ما نراه كل يوم حولنا، فكم من إنسان أغضب الله ليرضى صاحب نفوذ أو صاحب سلطان، أو ليصل إلى منصب أو جاه أو مال، ثم انقلب عليه صاحب السلطان هذا فبطش به، أو لم يستطع أن يصل إلى المنصب أو الجاه أو المال إلا بالمعصية بل ارتكبها ولم تحقق له شيئاً، وإذا نظرت حولك فستجد الكثيرين ممن حاولوا أن يحققوا هدفاً دنيويا بمعصية الله، وشاءت إرادة الله أن ينقلب عليهم ما فعلوه وبالاً، وكم من إنسان ارتكب المعصية وأصبح فى قمة

النفوذ والمال والسلطان، وبعد يوم وليلة تغير كل شيء حتى لم يكفه أو يستره.

إذن.. فمنهج الله جاء ليحكم الحياة في الأرض ويقيم العدل بين الناس، ومع المنهج جاء التحذير بأن من يريد الحياة الحقيقية، فليرع الله في الدنيا ليصل إلى الحياة الخالدة في الآخرة متعما مكرماً، وإذا سيطر منهج الله على الحياة في الكون اعتدلت وامتلأت الدنيا خيرا؛ مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولو تصادمت الأهواء وتصارعت وبعدت عن منهج الله، لانتشر الشقاء والخراب في الأرض، ومن العجيب أننا نجد كثيراً من الناس بل والدول تنفق ما أعطاها الله من خير على الأهواء والصراعات ليضيع الخير كله، وينقلب شرا ووبالاً على الجميع.

وحين يبتعد الناس عن منهج الله، ويتبعون أهواءهم وتفسد الحياة في الأرض، وتنسى تعاليم الله، يستدعي الله خلقه سبحانه وتعالى إلى يوم الحساب؛ ليريهم الحق والحقيقة، وليعلموا علم اليقين ما هو الزيف وما هو الحق، حين تصطدم حركة الحياة وتضيع الحقائق ويحكم الزيف، والله يريد خلافة مستقرة في الأرض، حينئذٍ من الطبيعي أن نعود إلى الله سبحانه وتعالى.

وخلاصة الأمر أن الناس ينسلخون من دينهم، ويتبعون أهواءهم ولم يعد الدين حاكماً لتصرفات البشر ولا لحركة الحياة، حينئذ تقوم الساعة.

هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يستنفد العقل البشري فكره، ويستنفد تجربته، ويستنفد طموحاته في اكتشاف أسرار الحياة كلها، وحين يغتر الإنسان بالعلم الذي وصل إليه وبالإمكانات التي حققها أو التكنولوجيا التي يقولون عنها، حين يصل غرور العقل البشري بأنه يتصرف في الحياة وفق ما يريد، وينسى الناس الله قدرة الله، ويعتقدون أن الدنيا قد خضعت لهم بعقولهم هم، حينئذٍ يستدعيهم الله سبحانه وتعالى إليه ليعلموا أن القوة والقدرة لله وحده، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

❁ ❁ ❁